الحق غاية الخلق في القرآن

الكتاب: الحق غاية الخلق في القرآن

الكاتب: د. برهان زريق

الطبعة الأولى: 2016

جميع الحقوق محفوظة لورثة المؤلف

الكتاب صدر بعد وفاة الكاتب يرحمه الله

لذا لم يحظ بالتدقيق من قبله

يرجى موافاتنا بملاحظاتكم واقتراحاتكم

على البريد الالكتروني:

Burhan_zraik@yahoo.com

موافقة وزارة الإعلام في سوريا على الطباعة

رقم 114753 تاريخ 3/10/2017

د. برهان زريق

الحق غاية الخلق

في القرآن

أعيش...لأكتب

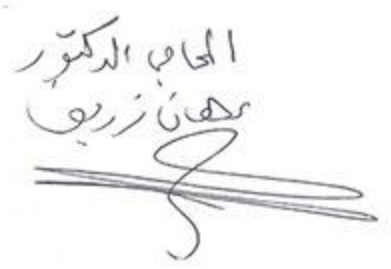

موضوع كتابنا هذا **الحق غاية الخلق في القرآن** موضوع هام خفيف على اللسان ثقيل في الميزان، ينبري جوهر الحق في المفهوم القرآني وأسسه وتجلياته، ثم ينبري لتحديد غايته، وأخيراً يقوم بحرث تطبيقاته على موقع هام، أعني بذلك تدافعنا مع إسرائيل.

لقد انبريت باستقراء واستجلاء المعاني المختلفة لكلمة الحق: المعنى اللساني اللغوي، فالمعنى المجازي، فالمعنى الفلسفي الخاص، ثم المعنى الاصطلاحي المفهومي كما جاء على لسان القرآن الكريم، وهنا – في هذا الغرض الأخير – كان عليّ أن أستقرئ كافة الصور والمعاني الواردة في القرآن الكريم لأخلص إلى نتيجة هامة هي أن معنى الحق في القرآن يختلف عن معناه في الفلسفة الوضعية الحديثة، وفي القانون الوضعي الحديث، وبالتالي فهذا المعنى لكلمة الحق القرآني يعني فلسفة الوجود والكون ويوازي هندسة الحياة بما يعني فلسفة تكوينية للحياة لا وظيفية: functional فحسب، أي أن المعنى القرآني هو أصل التشريع لا التشريع ذاته، كما ندلل على ذلك الوضعية القانونية الحديثة.

والحق بالمعنى القرآني أساس مبدأ العدل والمساواة ثم التضامن والحرية، لقد تداعى بنا الموضوع وتفرعاته فإذا بنا نبحث عن معنى الحكمة في القرآن وغايتها، وقد طبقنا ذلك على مسألة التدافع بيننا وبين إسرائيل.

ومن تداعيات مبدأ الحق يتفرع موضوع الدخول في السلم كافة والحض القرآني على ذلك بشروطه ومقوماته ومن أهم ذلك عدم الإخراج من الديار بما هي حالياً وشأننا في فلسطين.

ولقد قفينا الأبحاث السابقة بالكلام على غائيته الحق ألا وهي الحق غاية الخلق، لكننا لم ننسى ثمرة بحثنا ومنتهاه، ألا وهي تطبيق ومآل بحثنا ونتيجته على حضارتنا حيث درسنا مآلات هذه الحضارة ومثالاتها وتكللها بالحق والعدل، ثم انتقلنا إلى الغاية القصية في هذا الباب ألا وهي الصراع أو التدافع العربي الإسرائيلي والملاحظ أننا سلكنا المنهج القرآني الصرف ولكن هذا المنهج لا يتعارض مع المنهج القومي العربي القائم على نظرية الحقوق المكتسبة النابعة من التوضع في الأرض والاستقرار بها الناشئة من ذلك.

هذا هو موضوع البحث ومآلاته وكمالاته ومثالاته وتجربته وغايته ومنتهاه ومقتضى أمره.

لقد قسمت الكتاب إلى أربعة أبحاث:

تكلمت في **الأول** عن المعاني المختلفة التي تكتسبها هذه الكلمة، وتكلمت في **الثاني** على مفهوم كلمة الحق في القرآن والأفكار التي تتفرع عليه، وفي البحث **الثالث** المفهوم في الحضارة العربية الإسلامية، وأخيراً خصصت البحث **الرابع** لتطبيق هذا الجهاز المفاهيمي على الصراع العربي الإسرائيلي والله المستعان وهو المرتجى، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾**الأنبياء/92**.

المبحث الأول

المعاني المختلفة التي تكتسبها فكرة الحق

الحق لغة: الصحيح الثابت، وهو نقيض الباطل يقال: حق الأمر حقوقاً، أي صح وثبت دون شك ووجب.

-والحق: هو الوجود الثابت الذي لا يجوز إنكاره، وقد ورد اسم للحق عن الذات الإلهية عشر مرات في القرآن الكريم[1].

منها قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ **الحج/62.**

وقوله: ﴿ثُمَّ رُدُّواْ إِلَى اللّهِ مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ أَلاَ لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ **الأنعام/62.**

قال "الغزالي": ((الحق هو في مقابل الباطل، والأشياء قد تستبان بأضدادها، وكل ما يخبر عنه أحد أمرين: فإما الباطل مطلقاً، وإما الحق مطلقاً، والواجب بذاته هو الحق مطلقاً))[1].

[1]- الموسوعة الإسلامية الميسرة، ص 92.

1- لغة: حق الشيء، إذا ثبت ووجب، فهو الوجود الثابت، قال تعالى: ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ يس/7.

ولقد ورد هذا المصطلح 227 مرة في القرآن الكريم[2]، ولهذه الكلمة عدة معان منها: اسم الله عز وجل.

2-الدلالة على الموحد بحسب الحكمة، ولهذا يقال: فعل الله تعالى كلمة الحق، فالموت حق، والبعث حق، قال تعالى: ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ يونس/5.

3-الدلالة على الفعل والقول بحسب ما يجب، وبقدر ما يجب وفي الوقت الذي يجب، قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ السجدة/13.

4-الدلالة على الواجب اللازم، قال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الروم/47.

5-الحق أصلاً وفقهاً: في الاصطلاح الفقهي هو اختصاص مقربة الشرع على شيء، أو اقتضاء من آخر تحقيقاً لمصلحة معينة.

---

[1]- الموسوعة الإسلامية الميسرة، ص921.

[2]- المرجع السابق، ص922.

أمـا الأصـوليون، فيعتـبرون المعنـى اللغـوي مباشـرة، ويقسـمون الحـق إلى قسمين: حق الله، وحق العبد[1].

إذن فالحق في النص القرآني والمأثور النبوي يأخذ معاني كثيرة، منها ما هو لغوي، ومنـها مـا هـو مجـازي، ومنـها مـا هـو مفـاهيمي، وسـنولي وجهنـا صـوب المعنـى المعجمي، اللغوي على أن نقفي ذلك في تنقيبنا وحرثنا للمعنى المفاهيمي، كما هو موضح في الآتي:

[1]- الموسوعة الإسلامية الميسرة، ص922.

الفرع الأول

المعنى اللساني اللغوي

وهنا فالقرآن الكريم لا يرسم معياراً معيناً او مسلكاً أو يحيط المعاني بدلالات خاصة تحدد تبعية ما (قاعدة تقويمية)، بل يستخدم الكلمة بالصورة المستعملة في لغة العرب، مع الإشارة والاستطراد إلى أن القرآن الكريم عندما استعمل الكلمة استعمالاً إنشائياً وأبدع لها مدلولها الخاص الجديد أوجد ما يسمونه (اللسان القرآني)[1].

وفيما يلي بعض استعمالات الحق بالصورة التعزيزية العادية لا الإنشائية:

- ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاَوَتِه﴾ البقرة/**121**.

فهنا يصنف القرآن الذين أوتوا الكتاب بأنهم يتلونه تلاوة كاملة وفقاً للأمور المقررة في طبائع الأشياء، أي في القراءة العفوية العربية المعهودة.

- ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ البقرة/**144**.

---

[1]- محمد أبو القاسم حاج حمد: جدلية الغيب والإنسان والطبيعة.

- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ **آل عمران/102**.

فهنا لا يرسم القرآن الكريم قاعدة سلوكية، وإنما نحن حيال مجرد تقرير وإشارة وإخبار بأنه يعلمون أنه الحق.

- ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ **البقرة/146**.

الفرع الثاني

المعنى المفاهيمي لكلمة (الحق) في القرآن

قد تضيق لغة اللسان عن الإحاطة بمعاني الأشياء الرابية والغريزة، ويحدث ذلك كثيراً في حال ضيق لسان اللغة وفقره، أوفي حال ما إذا ولد حقل معرفي معين مزيداً من المعاني والمفاهيم، كما هو الشأن في حال التقدم الحضاري والعلمي...

هكذا ينشأ لدينا العديد من الأجهزة المفاهيمية ذات الدلالة النوعية الخاصة semis generis التي تخرج عن الدلالة اللغوية، والقول بغير ذلك يعني الحؤول دون أي تطور وتقدم في مضمار العلم والحياة، وبالتالي تقدر مواجهة المتطلبات الجديدة وكلمة الحق ألصق الأشياء بالاستعمال المعياري التقويمي، لهذا تكثر الحاجة إليها كجهاز مفاهيمي يواجهها الإنسان في ارتقائه وتقدمه، وحكمه على الأشياء في مجابهاته الحضارية، وهذا ما نلحظه بالنسبة للغة الإنكليزية خاصة في ثوبها الحضاري القشيب حتى وكأن الأجهزة المفاهيمية كثيراً ما يبتعد معناها المفاهيمي عن المعنى اللغوي.

ولما كان من الصعب تتبع معنى هذه الكلمة في الحقول المعرفية المختلفة، فسيقتصر وكدنا وجهدنا على تشريح جثتها- قدر الإمكان – في الميدان الفلسفي – لا سيما الفلسفة الدينية – وعلى صعيد اللسان القرآني[1].

[1]- التفرد القرآني في الإنشاء اللغوي هو العامل الوحيد الذي استطاع أن يظهر شخصية التفرد العربي بمطلقها الذاتي لأن تجربة العرب الوجودية قد اختارت اللغة كمجال لتجسيد ذاتها والتعبير عن تقويمها، فلم يكن من الممكن أن يظهر العربي إلا من لسانه، ولم يقتصر الأمر على الإنشاء فقد ارتقى القرآن بكمالات التميز والتفرد في خصائص الكلمات، فما من كلمة إلا ولها معناها المحدد الذي لا يحتمل كنفسية العربي أي تمثل أو تطابق مع كلمة أخرى، ومن هنا يصبح تفسير القرآن من أدق العمليات اللغوية الحضارية.

محمد أبو القاسم حاج حمد: جدلية الغيب والإنسان والطبيعة، دار الهادي، بيروت، سنة 2004، ص 389.

الفرع الثالث

معنى كلمة الحق في الحقل الفلسفي
(الحقل الفلسفي الديني خاصة)

معلوم لدينا أن العلوم المعيارية تضع مقاييس أو معايير للنشاط الإنساني، ولما ينبغي أن يكون عليه، وتسمى هذه العلوم علوم القيم، وتشمل علم المنطق الذي يتضمن قواعد التفكير السليم وقيمته الحق، وعلم الأخلاق الذي يحدد مبادئ العمل والسلوك الإنساني وقيمته الخير، ثم علم الجمال الذي يحدد معايير الجمال وروعة الأشياء وقيمته الأساسية الجمال[1].

ذلك أن الأكسيولوجيا[2](مبحث القيم) أو فلسفة القيم تتعرض للبحث في المثل العليا أو القيم المطلقة.

وهي الحق والخير والجمال من حيث ذاتها لا باعتبارها وسائل إلى تحقيق غايات، هل هي مجرد معانٍ في العقل تقوم بها الأشياء أم أن لها وجوداً مستقلاً عن العقل هذا من مباحث يتضمنها علم المنطق وعلم الأخلاق وعلم الجمال (أي من حيث

---

[1] – د. نايف بلوز: علم الجمال، منشورات جامعة دمشق، ط5، 1969، ص2.

[2] - الأكسيولوجيا Axiologie :وهو العلم الذي يدرس علم القيم المثل العليا والقيم المطلقة ومدى ارتباطها بالعلم وخصائص التفكير العلمي.

هـي علـوم معياريـة تبحـث فيمـا ينبغـي أن يكـون وليسـت علـوم وضـعية تقتصـر دراستها على البحث فيها هو كائن).

في علم المنطق يضع القواعد التي تعصم مراعاتها العقل من الوقوع في الزلل أي يبحث فيما ينبغي أن يكون عليه التفكير السليم.

وعلم الأخلاق يضع المثل العليا التي ينبغي أن تسير سلوك الإنسان بمقتضاها أي يبحث فيما ينبغي أن تكون عليه تصرفات الإنسان.

وعلم الجمال يضع المستويات التي يقاس بها الشيء الجميل[1]، وكثيراً ما نلمح المزج بين هذه القيم الثلاث.

فالفيلسوف "اكسينوفان" يوجد بين الجميل والنفع والخير[2]، و"أفلاطون" يوحد بين الحقيقـة المطلقـة والجميـل وإن كـان بعـد الجمـال الروحـي أسمـى مـن الجمـال الحسي[3]، ولعل الدكتور "بلوز" يعتبر الجمال هو الحقيقة في شكلها المثالي[4].

وأخيراً فالفلسفة وحدة تركيبيـة تجمـع بـين الحكمـة وطلـب الحقيقـة[5]، فهـي الـتي نهينا معرفة الحقيقة وطلب الحقيقة هو طلب الحكمة[1].

---

[1]- د. توفيق الطويل: أسس الفلسفة، القاهرة، دار النهضة العربية، 1976، ص89.

[2]- المرجع السابق، ص 10.

[3]- المرجع السابق، ص 10.

[4]- المرجع السابق، ص 10.

[5]- المرجع السابق، ص 10.

وذروة كمال الطبيعة في الإنسان الذي يتحلى جماله الأسمى في عقله وفي نفاذه إلى أسرار الكون[2].

وذروة الحقيقة الله (والحقيقة) عند "أوغسطين" واحدة، هي إلهية، بل هي الله عينه، والسعادة هي الاستمتاع بالحقيقة[3].

ويركز "أوغسطين" على طلب الحقيقة والكشف عنها ثم استيعابها، ولا سبيل عنده في ذلك دون الإيمان، ولا يمكن اكتشاف الحكمة إلا عن طريق الإيمان[4].

والتقدم عند "أوغسطين"- حركة يتجه بها العقل إلى نحو الباطن وإلى أعلى نحو الله في القمة والمركز، فهي انفتاح العقل لإشراك الحقيقة التي لا تتبدل، تلك الحقيقة التي تتخذ مكانها في الباطن وفي العلا، ومن الميسور دائماً أن نعانق تلك الحقيقة شريطة أن تكون البصيرة زكت بالإيمان[5].

وأخيراً يؤكد "أوغسطين" أن الكلمة في تجسيدها هي طريق العودة أمام الإنسان إلى الكلمة التي هي الحق، وهي الطريق قدماً إلى المسيح المرفوع إلى السماء الذي هو الحياة[6].

---

[1]- الموسوعة الفلسفية المختصرة، نقلها عن الإنكليزية فؤاد كامل وجلال العشري وعبد الرشيد صادق راجعها الدكتور زكي محمود، بيروت، دار القلم، ص88.

[2]- د. نايف بلوز: علم الجمال، ص17.

[3]- الموسوعة الفلسفية المختصرة، ص88.

[4]- المرجع السابق، ص89.

[5]- المرجع السابق، ص90.

[6]- المرجع السابق، ص90.

وهي تلك القضايا التي يمكن لأي إنسان أن يتبين صدقها عن طريق النور الفطري للعقل، وقد وصف "ديكارت" هذا النوع من القضايا بأنه غير قابل للشك، أي غير قابل لأن يشك فيها بحكم طبيعتها الذاتية وبذلك فـ "ديكارت" يرمي إلى استكشاف المعرفة اليقينية، أي المعرفة غير القابلة للشك[1]، فالمسائل الصادقة هي يمكن حملها على نفسها بالكلمات المنطقية الخالصة[2].

والفيلسوف "جون ديوي[3]" استبدل مسألة الصدف بمسألة القمة، وكان يتساءل، ماهي النتيجة الصادقة، وعرف الرجل الحكيم بأنه لا يحتاج إلا إلى ما يستطيع تحقيقه، وبهذا فهو لا يحقق إلا ما يحتاج إليه[4].

ولكن ما هو معيار الصدف أو الحقيقة؟؟.. هو الهدف وهو يتلاءم مع مجموع ما يتصوره العقل من أهداف الانسانية كلها[5].

وقد عرف المنجد الحكمة بأنها الكلام الموافق للحق[6].

---

[1]- الموسوعة الفلسفية المختصرة، ص190.

[2]- المرجع السابق، ص214.

[3] - جون ديوي هو فيلسوف وعالم نفس أمريكي وزعيم من زعماء الفلسفة البراغماتية. ويعتبر من أوائل المؤسسين لها.

[4]- المرجع السابق، ص219.

[5]- المرجع السابق، ص229.

[6]- المنجد في اللغة والأدب والعلوم، لويس معلوف، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ط5، 1908.

الفرع الرابع

المعنى الاصطلاحي

قلنا إن هذه الكلمة هي رائدة النشاط التقويمي في البراعة (العلم)، فمن جوانبها يجسد الله تقويمه في النفس الإنسانية وفي الآفاق ثم في الكون، وهكذا فمجهودنا يتذكر في استقراء المظان الكلية لهذه الكلمة من النص القرآني، وبعد هذا الاستقراء سنقوم بنخل النتيجة وغربلتها وفرزها وتصنيفها، ثم نفخ الروح بها لاستخلاص المدلولات المختلفة لهذا الجهاز المفاهيمي، مؤكدين على ما ذكرنا سابقاً بأن اللسان القرآني لغة مفاهيمية خاصة تختلف نسبياً عن المعنى القاموسي، بل لعل القرآن نفخ فيها وأعطاها هذه الدلالة المعينة في ظاهرة التحدي الإعجازي للغة العرب.

هذا ونشير إلى أن "أرسطو" عرّف الفلسفة بأن موضوعها الوجود بما هو موجود ومعرفة من حيث أصله ومصيره وموجوداته وما يعتروه من صنوف التغير والتبدل.

وفي الحقيقة فأول ما يعنى ويهم الفيلسوف بحث الوجود لمعرفة كنهه وماهية موجوداته وطبائع الأشياء وحقائق الموجودات، وقد سمى ذلك الفلسفة الأولى باعتبارها تتناول المعرفة لذاتها وموضوعها البحث عن طبيعة الأشياء وأهم مباحثها هو الله باعتباره الموجود الأول والعلة الأولى للوجود، وهو ما تغنيه اليوم ما بعد الطبيعة الميتافيزيقيا وهذا ما حدده "الفارابي" بأن الفلسفة هي معرفة فوق الطبيعة (العلم بالموجودات بما هو موجود).

وذهب "ثوسيديديس[1]" على لسان "بريكليس[2]" إلى الكلام على حب الجمال في غير سرف وميل إلى الحكمة في غير ضعف أو تخنث باعتبارها تبحث في العلل الأولى (أرسطو)[3].

ولعل المأثور النبوي الآتي بعدد مظاهر الحق في الإسلام، يقول ﷺ: ((اللّهُمّ لَكَ الحَمْدُ أَنْتَ قَيّمُ السّمَوَات وَالأَرْض وَمَنْ فيهنّ وَلَكَ الحَمْدُ، لَكَ مُلْكُ السّمَوَات وَالأَرْض وَمَنْ فيهنّ وَلَكَ الحَمْدُ، أَنْتَ نُورُ السّمَوَات وَالأَرْض وَمَنْ فيهنّ وَلَكَ الحَمْدُ، أَنْتَ مَلكُ السّمَوَات وَالأَرْض وَلَكَ الحَمْدُ، أَنْتَ الحَقّ، وَوَعْدُكَ الحَقّ، وَقَوْلُكَ الحَقّ، وَلِقَاؤُكَ حَقّ، وَالجَنّةُ حَقّ، وَالنّارُ حَقّ، وَالنّبِيّونَ حَقّ، وَمُحَمّدٌ صَلّى اللّهُ عَلَيْه وَسَلّمَ حَقّ، وَالسّاعَةُ حَقّ، اللّهُمّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ، وَبكَ خَاصَمْتُ، وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ، فَاغْفرْ لي مَا قَدّمْتُ وَمَا أَخّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، أَنْتَ المقَدّمُ، وَأَنْتَ المُؤَخّرُ، لاَ إِلَـهَ إِلّا أَنْتَ، وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوّةَ إِلّا بِاللّه))/حديث صحيح.

وفيما يلي تجليات أول مظاهر الحق:

---

[1] - مؤرخ إغريقي شهير، صاحب كتاب تاريخ الحرب البلوبونيزية ويعد أول المؤرخين الإغريق الذين أعطوا للعوامل الاقتصادية والاجتماعية أهمية خاصة، ووقع عليه عبء كتابة تاريخ حقبة شاذة من حياة الحضارة التي ترعرع في ربوعها.

[2]- سياسي أثيني عاش بين عامي 495 – 429 قبل الميلاد وحكم أثينا بشكل متقطع من عام 460 ق م حتى وفاته.

[3]– د. توفيق الطويل: أسس الفلسفة، ص437 وما بعدها.

أولاً – الله هو الحق في عينه وذاته:

أجل ليس اللّٰه مظهراً من مظاهر الحق فحسب ولكن الحق عينه وذاته وماهيته وجوهره ويقينه.

ولا مجال هنا للاستفاضة في ذات اللّٰه لأن بحثنا ليس لاهوتياً، وحسبنا القول بأن اللّٰه تعالى هو المنتهى وغاية الغايات، ويقين اليقين، ومن ثم فلا يكفي القول بأن اللّٰه يرسل الرسل بالحق وينزل الكتاب بالحق أو أن وعده هو الحق وغير ذلك من النعوت، ولكن اللّٰه هو الحق ذاته وعينه.

وبيان ذلك أن اللّٰه تعالى لا يحمل على شيء وإنما هو محمول لذاته، فهو والحق سيان لا ينفصلان سواء اعتبرنا الحق صفة من صفات اللّٰه أم حملناه على ذاته.

وحسماً لهذا الموضوع، فقد خلص الفكر الديني الإسلامي إلى اعتبار كلمة (حق) من أسماء اللّٰه الحسنى.

فاللّٰه تعالى هو الحق، وأن ما يدعون من دونه هو الباطل، وأن اللّٰه هو العلي الكبير: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ **الحج/62**، وقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ **لقمان/30**.

وقوله: ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾ **الفرقان/26**، ﴿هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ **الكهف/44**.

وقوله: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ **طه/114**، وقوله تعالى: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ **المؤمنون/116**.

وقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ **الحج/6**.

وقوله: ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ **الأنعام/62**.

أما عيسى بن مريم، فهو قول الحق لا الحق ذاته: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ **مريم/34**.

هذا ونشير إلى أن المصريين القدماء كانوا يعتقدون أن الله هو الحقيقة، فهو يعيش بالحقيقة، وهو ملك الحقيقة وهو ينفذ إلى الحقيقة في عالم أجمع[1].

ثانياً- الله قيوم السماوات والأرض بالحق:

وهذا هو تعبير الرسول ﷺ كما سبق أن ذكرنا، ولكن هل يقصد بالقيومة هنا الكون والوجود شكلاً وقياماً أم ما هو موجود وظيفة وغاية.

لن ندخل هنا بالتفاصيل اللاهوتية، ونعتقد أن كلمة قيوم تعني المعينين أي الكيان والوجود بما هو موجود ونعني المعنى الوظيفي أي حركة هذا الوجود وفيما يلي أمثلتنا على ذلك:

[1]- محمد أبو القاسم حاج حمد: جدلية الغيب والإنسان والطبيعة، ص206.

أ- خلق السماوات والأرض بالحق:

-﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ **الأنعام/73**.

ب- ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ **فصلت/53**.

ج- والله تعالى يهيمن- وظيفياً- على الحق: ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ﴾ **المؤمنون/71**.

د- والله لا يستحي أن يضرب المثال على الحق فهي أصغر خلقه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ **البقرة/26**.

هـ- ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ **البقرة/176**.

-﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ **البقرة/213**.

- ﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ **البقرة/252**.

- ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ **آل عمران/3**.

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ **النساء/105**.

﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ **المائدة/48**.

﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ **الإسراء/105**.

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾ **البقرة/119**.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ **النساء/170**.

﴿ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ **المؤمنون/62**.

﴿ هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ **الجاثية/29**.

﴿لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ **الأعراف/43**.

﴿قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾**الأعراف/53**.

﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ **التوبة/33**.

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ **الفتح/28**.

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ **الصف/9**.

فالحق وصف في القرآن الكريم بأنه من عند الله، وحرف (من) في العربية يفيد الجزئية والتبغيض.

وبالطبع فلا تعارض بين قول القرآن الكريم إن الله هو الحق.

وقوله: ((الحق من ربك.... فالقول الأول يعني كماله ومطلقه، أما القول الثاني فيعني أن الحق جزء من عند الله، مؤكدين ما قلناه سابقاً من أن كلمة الحق اعتبرت من أسماء الله الحسنى)).

ولقد تكررت الآيات الكريمة التي توضح ذلك:

﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ البقرة/147.

﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾آل عمران/60.

﴿وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ البقرة/149.

﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾ المائدة/84.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ البقرة/26.

﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ﴾ الكهف/29.

ثالثاً- تقويم السلوك الإنساني:

وقد كثرت الأحكام في مجال ترشيد السلوك الإنساني وتقويمه من ذلك:

﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ البقرة/42.

﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ البقرة/61.

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾البقرة/109.

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ آل عمران/71.

﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ آل عمران/181.

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ النساء/171.

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ المائدة/77و﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ النساء/171.

﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ الأنعام/151.

﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ الاسراء/26.

﴿ فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾الروم/38.

﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ﴾ المعارج/24.

﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ الأنفال/6.

الاستعمالات الأخرى لكلمة الحق:

والله تعالى لا ينزل فقط الكتاب بالحق أو يرسل اكتاب بالحق، وإنما الحق فلسفة كاملة للكون يتأكد ذلك من هذا البساط الواسع للحق، وتلك الحمولة الكبرى له: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ **البقرة/91**.

﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ **البقرة/252**.

﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ **آل عمران/62**.

﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ **آل عمران/86**.

﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ﴾ **آل عمران/108**.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ **النساء/122**.

﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ **الأنعام/5**.

﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ **الأنعام/30**.

﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ الأنعام/66.

﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ سبأ/23.

﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ الأعراف/44.

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ الأحقاف/34.

﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾ غافر/78.

﴿لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ التوبة/48.

﴿وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ يونس/82.

﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يونس/103.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الروم/47.

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ الصف/9.

﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ يونس/35.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ﴾ يونس/76.

﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ الإسراء/81.

﴿وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنْذِرُوا هُزُوًا﴾ الكهف/56.

﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ الأنبياء/18.

﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ سبأ/49.

﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ الأعراف/118.

﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ الأنفال/8.

﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ الرعد/17.

﴿وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ غافر/5.

﴿وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ **الشورى/24**.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾ **محمد/3**.

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ **الفتح/28**.

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ **الأعراف/33**.

﴿حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾**الأعراف/105**.

﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ **الأعراف/159**.

﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ **الأعراف/169**.

﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ **الأعراف/181**.

﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ **الأنفال/6**.

﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ﴾ التوبة/**29**.

﴿قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ﴾ يونس/**77**.

﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ يونس/**94**.

﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ البقرة/**42**.

﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ الأنبياء/**24**.

تقدير وتقويم

باستقراء النصوص السابقة نسجل الملاحظات الآتية:

سعة رقعة هذا المفهوم القرآني وغزارته وتعدد استعمالاته ومجالاته:

لقد عرض الحق من علاقته الجدلية مع نقيضه الباطل، فإذا نحن حيال ومنظومة قرآنية تناقض الباطل وتجادله وتتقفى آثاره وتمحق توضعاته وفي هذه الفكرية الكبرى (الإيديولوجيا الخاصة بالقرآن) يعرض لحجج النقيض وتقوله إن ما جاء به الرسول ﷺ سحر مبين ثم كيف يرد الحق على الباطل فيدفعه ويبطله ويمحقه، غير ذلك من ضروب تسفيه الحلم، والتنديد به.

لقد أطلق هذا المفهوم على ذروة النسق القيمي (الله) الذي هو الحق ذاته (مولاهم الحق)، كما استعمل في قاعدة هذا الهرم القيمي الإسلامي (البعوضة والذبابة).

الحق بالمعنى القرآني قائم على أسس ثابتة ومعاني لا تريم وغير خاضعة للتغلبات والأهواء: ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ﴾ **المؤمنون/ 71**.

إن الله تعالى خلق كما قلنا السماوات والأرض بالحق، وهذا يدل على سعة نطاق المجال الذي يتحرك به الحق بعكس المفهوم الفلسفي الوضعي الذي يحضره في مجال الفكر.

إن الله تعالى يعدد الوسائل وينوعها ويحصيها ويضرب الأمثال ويري الآيات حتى يتبين لحق للناس من ذلك: سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق.

إن الحق مصدراً ومنشأ ونطاقاً من عند الله:

أرسل الله الرسل بالحق، وأنزل الكتاب بالحق وتتلوا الكتاب بالحق، وتبطن بالحق، وينجي المؤمنين وينصرهم بالحق إلى غير ذلك من أضراب وأشكال وصور وأمثال الحق.

والله تعالى قرن الهدى بدين الحق ووضعهما في كفتين متساويتين، فهو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق وسنتعرض لهذه الناحية بالتفصيل، ولقد قص الله تعالى القصص بالحق، إن هذا لهو القصص الحق، وتقام الحجة ويجابه المشركون والكافرون بالحق.

﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾ **الحج/54.**

﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ **المؤمنون/70.**

﴿بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ **المؤمنون/90.**

﴿وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾ **النور/49.**

﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ **الفرقان/68.**

﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ **القصص/39.**

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى﴾ **القصص/48.**

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ يونس/108.

﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ هود/17.

﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ هود/120.

﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ الرعد/1.

﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ الرعد/19.

﴿قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ﴾ الحجر/55.

﴿وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ الحجر/64.

﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ الإسراء/33.

﴿إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾ الأحزاب/53.

﴿مُفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ سبأ/43.

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ فاطر/24.

﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴾ **فاطر/31**.

﴿بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ﴾ **الصافات/37**.

﴿وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾ **القصص/53**.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ﴾ **العنكبوت/68**.

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ السجدة/**2**.

﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ الأحزاب/**37**.

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ ﴾ الكهف/**13**.

﴿وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ الكهف/**21**.

﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ﴾ الأنبياء/**55**.

﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الأنبياء/**97**.

﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ الحج/**18**.

﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ الحج/**40**.

﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ الحج/**54**.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ﴾ المؤمنون/**41**.

﴿بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ المؤمنون/**90**.

﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ﴾ النور/**25**.

﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ القصص/**13**.

﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ القصص/**39**.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا﴾ القصص/**48**.

﴿قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ القصص/**63**.

﴿فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ القصص/**75**.

﴿خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ العنكبوت/**44**.

﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ لقمان/**33**.

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ السجدة/**3**.

﴿وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ السجدة/**13**.

﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ الأحزاب/**4**.

﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴾ ص/**22**.

﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ص/**26**.

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ الزمر/**41**.

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ الزمر/**2**.

﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ غافر/**20**.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ غافر/**25**.

﴿ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ غافر/**75**.

﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ الشورى/**17**.

﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ ﴿29﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ﴾ الزخرف/**29-30**.

﴿لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ الزخرف/**78**.

﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ الجاثية/**6**.

﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ الأحقاف/**7**.

﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ الأحقاف/**17**.

﴿قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ الأحقاف/**30**.

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ﴾ ق/**5**.

﴿وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ النجم/**28**.

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ الحديد/**16**.

﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ العصر/**3**.

إن الكون بكامله وسعته وشموله وتكوينه وهندسته وحركته الكلية والجزئية قائم على الحق، والله تعالى تأكيداً ووعياً لهذه المنظومة يضرب الأمثال وينوعها عن الحق، فجماع هذه المنظومة قائم على الحق وأدنى حركة فيها مظهر للحق: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ يس/**40**.

والخلاصة فالحق كما يتراءى لنا من المساحة النصية فلسفة كاملة للحياة ونظاماً دقيقاً للحجة والإثبات والمقارعة وغاية مثلى للرنو والحركة والرجاء تفنن الإسلام في استعمالها وبرعت براعة القرآن في رسم الصور لها، وبما هو أصل التشريع والتشريع ذاته.

إذا كان هذا المنهج الحق وسير حركته، فما هو منتهاه والمآل الذي ينبغي ويرنو إليه؟؟.

الجواب موضوع بحثنا الحق غاية الخلق.

المبحث الثاني

الحق أساس النظام القيمي في الإسلام

لو صنفنا النظام القيمي في الإسلام في مراتب ودرجات بعضها يعلو بعضاً لاستطعنا وضع الحق في ذروة هذا الهرم القيمي دون أن ننسى الذروة الجمالية والذروة الأخلاقية.

فلو أخذنا على سبيل المثال النظام السياسي أو الهرم السياسي القيمي في الإسلام، لرأيناه يقوم على مبادئ تعلو وتسوس القواعد، وهذه المبادئ هي: مبدأ الحرية، مبدأ المساواة مبدأ العدل مبدأ التضامن[1].

ولو تأملنا في هذه المبادئ، وحللنا مضمونها لوجدناها تتفرع عن فكرة الحق فأية قيمة لمبدأ المساواة ولمبدأ العدل ولمبدأ التضامن ومبدأ الحرية ذاتها، إذا لم تكن هذه المبادئ قائمة وتتحرك على أساس فكرة الحق.

ولو رجعنا إلى بحث المعنى الفلسفي لكلمة (حق) لرأينا هذه الكلمة تقوم على مفهوم فكري محض، على عكس مدلول هذه الكلمة في القرآن فهو يتسع إلى ما وراء وخارج هذا المدلول الفكري ليشمل الكون المادي سعيه وامتداده وحركته

[1]- د. ثروت بدوي: أصول الفكر السياسي، القاهرة، دار النهضة، 1970، ص135.

ونطاقه أجل لقد ذكرنا أن علم المنطق يتضمن قواعد التفكير السليم وقيمته الحق، في حين نجد اتساع هذه الكلمة في النص بالمدلول القرآني لدرجة أنها تتسع لمفهوم الله ذاته (الحق)، كما تتسع لهذا الكون الأشمل من أصغر كائن (البعوضة) إلى أعظمه كذلك فكلمة الحق تتسع للنظام اخلاقي (السلوك الخير) كقوله تعالى:

﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ **الإسراء/33**.

والخلاصة فرقعة مفهوم الحق والقرآن الكريم أوسع من هذه الرقعة لحق بالمفهوم الوضعي كما حددته الفلسفة الحديثة.

فمقياس الحق في الإسلام الجلاء والوضوح الذي يرتفع بالحق فوق كل شك in doubtability.

قال ﷺ: ((إذا رأيت كالشمس فاشهد وإلا فدع)).

ومن مقاييس الحق في القرآن مقياس التطابق: correspondence ويراد به مطابقة الحكم للموضوع الخارجي، ثم مقياس الاتساق أو عدم التناقض:consistency، ثم مقياس الترابط coherence، ويراد به أن يكون الحكم مترابطاً مع مجموع الأحكام المعرفة، ثم مقياس الوضوح obviousness، عند أصحاب نظرية الواضح بذاته self-evident[1].

الأفكار والمعاني المرتبطة بفكرة الحق

ترتبط عدة أفكار ومعاني في القرآن الكريم بفكرة الحق وهذه المعاني هي:

[1]- د. توفيق الطويل: أسس الفلسفة، ص 392.

الفرع الأول

الحكمة

هي إصابة الحق بالعلم والعمل، وقيل في تعريفها: ((فعل ما ينبغي على الوجه الذي ينبغي في الوقت الذي ينبغي، وقيل: العمل بمقتضى العقل الحر، وقيل: هي وضع الأشياء في مواضعها))[1].

قال "ابن قيم الجوزية": ((الحكمة نوعان، حكمة علمية، وهي الاطلاع على بواطن الأشياء، ومعرفة ارتباط الأشياء بمسبباتها، وحكمة عملية، هي وضع الشيء في موضعه))[2].

يقول "الدكتور خليل أحمد خليل": ((الحكمة أحكم علم وأصدق قول لأنها العلم بالموجودات على ماهي عليه في ذواتها))[1].

---

[1] – الموسوعة الإسلامية الميسرة: المشرف الدكتور محمود عكام، ص 5، جار صحارى للطباعة والنشر والتوزيع، مادة حكمة، ص927.

[2] – المرجع السابق، ص 927.

هكذا صرح "سقراط" بأنه ليس حكيماً وإنما هو محب للحكمة يلتمس بحبه لها معرفة ما يجهله منها، وفي النهاية فالحكمة لا تضاف لغير الآلهة وقد أسماها الفلسفة الأول تمييزاً لها عن الفلسفة الطبيعية [2].

وسماها "أرسطو" الحكمة لأنها تبحث في العلل الأولى إطلاقاً لا الأولى في جنس من الأجناس، وأشار "ثوسيديديس" إلى الحكمة فقال: ((نحب الجمال في غير سرف ونميل إلى الحكمة في غير ضغن))[3].

وقسم "ابن سينا" الفلسفة إلى حكمة نظرية تتناول الأمور التي لنا أن نعلمها وليس لنا أن نعمل بها، وحكمة عملية تتعلق بالأمور التي لنا أن نعملها ونعمل بها[4].

ولقد استعمل القرآن الكريم مفهوم الحكمة في عدة مواضع وفظان من ذلك قوله تعالى:

﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ **البقرة/269**.

﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ **آل عمران/164**.

---

[1] – د. خليل أحمد خليل: العقل في الإسلام، بيروت، دار الطليعة، ط2، 2010،ص45.

[2] – د. توفيق الطويل: أسس الفلسفة، ص 45.

[3] – المرجع السابق، ص 47 و 46.

[4] – المرجع السابق، ص 49.

﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ النساء/113.

﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ الجمعة/2.

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾ آل عمران/81.

﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ البقرة/129.

﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ البقرة/151.

﴿وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ البقرة/231.

﴿فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾البقرة/251.

﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ آل عمران/48.

﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾ النساء/54.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ النساء/113.

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ المائدة/110.

﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ النحل/125.

﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا﴾ الإسراء/39.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ لقمان/12.

﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ الأحزاب/34.

﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾ ص/20.

﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ **الزخرف/63**.

ما الظلال الفكرية والمنطقية التي تعطيها هذه الكلمة في القرآن المجيد؟؟.

لنذكر أولاً أن الحكمة عنصر من عناصر رسالة الرسولﷺ وقد مجدها الله في حق (لقمان) الحكيم الذي آتاه الله الحكمة، والحكمة هي النظر للأمور في حقائقها وليس في أشكالها وسطوحها، والكتاب كوني مفتوح ويترافق مع ذلك كله التزكية وذلك بترقية الذات وجعلها بالنظر أقرب إلى معارج النور لتتفتح على هذا السجل الكوني وعلى معاني الحكمة[1] وفقهه وعلى تلاوة آيات الله: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿77﴾ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ﴿78﴾ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ **الواقعة/77-79**.

فالحكمة إذن هي جوهر الحقائق في الأشياء، وهي رؤية الأمور في حقيقتها من حيث تعلقها بالله[2].

ومن هنا فقد أعطي الرسول محمد ﷺ لا النبوة فحسب، ولكن الحكمة بأسمى معانيها ليُسمع الله أجمعين من خلال الحكمة[3].

ومنهج الله الحكم بالحق، والحق ليس هو التشريع، وإنما مصدر التشريع، أي أن يكون هذا المصدر قائماً في نفوسنا ليأتي تطبيعاً للتشريع على نسق الحكمة الفايضة للخلق الكوني[4].

---

[1] – راجع في ذلك محمد أبو القاسم حاج حمد: جدلية الغيب والإنسان والطبيعة، ص381.

[2] – المرجع السابق، ص304.

[3] – المرجع السابق، ص376.

[4] – المرجع السابق، ص304.

والقرآن الكريم لا يهمه المعارج الفكرية التي يصل تحليقها حد التهويم، وإنما تهمه تلك الأفكار الفايضة على مواقع الخير، وهذه هي مآلات الأخلاق وكمالاتها وموضوعها، وقد وصف الله تعالى الحكمة بالخير الكثير: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ البقرة/**269**.

وبذلك يلتقي مفهوم الحكمة مع مفهوم الأخلاق والجامع بينهما الخبرة.

والملاحظ أن الحكمة وردت في ثنائية كتاب وحكمة، (الكتاب والحكمة)، والكتاب عادة يأتي بمبادئ وقواعد منصوص عليها، أما الحكمة فلا يمكن تحديدها إلا بمعناها، وقد رأينا ذلك في جوهر الأمور وموضعها المناسب وزمانها المحدد فتحديد الحكمة إذن يكون في الجوهر والمعنى ويترك الأمر للإنسان.

فتحديد الحكمة يكون في الجوهر والمعنى وبترك الأمر للإنسان يقدر الأمر في كل قضية بعد أن يكون قد نشأ وتربى على أحكام الإسلام وهذا مغزى قولنا هي رؤية الأمر في حقيقتها من حيث تعلقها بالله، وإعطاء مجال للفرد في تحديد الحكمة (غير المتصلة والمقيدة، هو اعتراف بأهمية المسلم ودوره ومكانته).

أجل لقد أبرم أحد الولاة المسلمين عقداً وصدّره بعبارة الله مصدر العقد فامتعض الخليفة من ذلك عند سماعه النبأ ليقول للوالي: ((ويحك أنت الذي أبرم العقد وليس الله)).

(الملاحظ أيضاً أن الحكمة اقترنت بالكتاب وبخصيصة أخرى هي التزكية ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم) والتزكية عملية تربوية نفسية أخلاقية وروحية وبذلك فقد أحاط القرآن بكل كمالات وقيم ومثالات الإنسان ويلاحظ أن الله آتى داوود

الملك (أي الحكم والسلطان) وقرن ذلك بالحكمة ﴿وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾ البقرة/**251**، وهذه سمات الحاكم والسلطان، فهل يتسم الحاكم العربي بذلك؟؟.

ولقد خاطب الله تعالى زوجات النبي بقوله: ﴿ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ الأحزاب/**34**، ونساء الرسول ﷺ هي المثل الأعلى الذي يجب على كل امرأة مسلمة أن تتقيد بهذا المثل الأعلى.

ولعل الحكمة في القرآن الكريم تأتي دائماً بمعنى: العمل بمقتضى العقل الحر[1].

والحكمة ولا شك لها تطبيقات حية على أرضنا وواقعنا ولكن الحق في ممارسة هذه الحكمة من قبل الإنسان العربي معطل سواء أكان الملقي هو الإنسان العربي الذي يلقي نفسه بنفسه أم أن الملقى هو الحاكم الذي يصادر هذا الحق إضافة إلى حملة الحقوق الأخرى المصادرة.

والقضية التي سنتكلم عليها في إطار موضوعنا هذا (ألحكمة) هي حق التقدير أو التنسيب (الحكمة) في مواجهة العدو الصهيوني، وهل إن القرار الصادر عن جامعة الدول العربية (الأرض مقابل السلام) كان صائباً أم لا، أي هل هو استعمال لحق الكلمة الذي أعطانا إياه الله أم هو تقصير وتخاذل في استعمال هذا الحق، وباختصار شديد هل هو مواءمة مع الواقع أم خضوع له ووقوع فيه (وقوع لاواقع).

الفرق بين الواقع والوقوع أمر جلي فالواقع وملاءمته ومواءمته والخضوع بما يلاءم الظروف لمقتضياته قوة وحكمة على أن تفهم الملاءمة بالخضوع المناسب لما تقتضيه الظروف وبالقدر الكافي اللازم لذلك، أما الوقوع فهو حالة نفسية تخضع

[1] – محمد أبو القاسم حاج حمد: جدلية الغيب والإنسان والطبيعة، ص 928.

للحال الانهيارية المستسلمة دون سبب كاف مع أن الظروف الموضوعية لا توحي بذلك.

نحن أمة عظيمة حبانا الله أرضاً تمتد من مضيق جبل طارق إلى الخليج العربي. هذا ونشير إلى أن الهنود الذين يرون أنهم ابدعوا الفلسفة والصينيين الذي يرون أنفسهم أنهم سموا بها إلى حد الكمال، يسخرون من تعصب الغربيين وضيق تفكيرهم، ففي تراث المصريين كتابات قديمة تتصل بالفلسفة الخلقية وأن حكمة مصر القديمة كانت تضرب الأمثال من اليونانيين اللذين اعتقدوا أنهم أطفال، إلى جانب حكماء مصر فتعاليم "بتاح حوتب" ترتد إلى ثمانية وأربعين قرناً من الزمان أي قبل عصر "كونفوشيوس وسقراط وبوذا" بـ 23 قرناً[1].

[1] – د. توفيق الطويل: أسس الفلسفة، القاهرة، دار النهضة 1976، ص 61.

الفرع الثاني

مبدأ الدخول في السلم كافة

رأينا كيف أن الإسلام اتخذ من الحق منهجاً كاملاً للكون، وأرسى كافة مقومات الحياة على هذا المنهج، مسهباً في تفصيل هذه الهندسة الكاملة للحق التي شملت مفاصل الحياة والكون ومقوماتهما.

وبعد هذا التفصيل القيق لفلسفة الحق انبرى القرآن الكريم ليوضع مفهوم الحكمة التي هي اليقين والجوهر في فلسفة الحق، ثم أخذت براعة القرآن الكريم تكمل الصورة وتبرز جوانب ومحددات النسق الإسلامي العام الهدى ودين الحق)، فإذا بالآية/25/من سورة الحديد، توضح لنا ما يلي: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾الحديد/**25**.

وهكذا فإنزال الكتاب والميزان يأتي ميكانيكياً وموضعياً قبل إنزال الله الحديد ولكنه يأتي أيضاً قبله قيمياً، والمسلمون عليهم أن يستنفذوا شروط العدل والكتاب ثم يلجؤوا بعد ذلك إلى القوة.

بعد كل هذه الأمور يأتي مبدأ الدخول في السلم كافة، والله تعالى أقام هذا المبدأ وأبرزه وأشاد به، ولكن ليس محمولاً معلقاً في الفراغ، بل شده إلى ضوابط اقتصادية واجتماعية وسياسية.

هكذا يتجه النظام الإنساني إلى نفي التركز الطبقي باتجاه المجتمع الإسلامي اللا طبقي، وقد أوضح الله خصائص العبودية الطبقية وآثارها الضارة على المجتمعات وبعد تلك المقدمات في سورة النحل والتي تحض على تملك البشر لإنتاجهم لينتقلوا من حالة السيطرة الطبقية أي أيكم لا يقدر على شيء[1] إلى حال الحرية، يأتي الله في ذلك السياق بالآية/79/من سورة النحل حيث يجعل الحرية قصداً نهائياً يتجه إليه المالك للانتاج من جهة، والمالك لقوة الوعي الثلاثي سمعاً وبصراً وفؤاداً من جهة أخرى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾**النحل/79**.

فالله سبحانه وتعالى يشير إلى الحرية بتوجيه النظر إلى حالة الطير، وليس إلى صورة الطائر ﴿ألم يروا إلى الطير﴾ **الملك/9**، وليس في السماء ولكن جو السماء، حيث تشابه حالة التحليق الحرة حالة الإطلاق التي لا تقيد إلا بقدره الإله (الأزلي) فالضوابط الانتصارية والاجتماعية تشكل قاعدة لمجتمع المسلم وحرية الاختيار لديه[2]، وكذلك الاحتواء والاستعمار السياسي، فالدولة المقهورة لا تقوى على شيء، وهي حكمة على الدولة الآخذة بخناقها.

---

[1]- تقول الآية الكريمة: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ **النحل/76**.

[2]- محمد أبو القاسم حاج حمد: جدلية الغيب والإنسان والطبيعة، ص511.

ومن البناء الاقتصادي يمتد السياق إلى البناء السياسي، فلا تنابذ ولا صراع ولا تفنن بالديمقراطية، وإنما السلم للناس كافة بلا عنف أو صراع.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿204﴾ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴿205﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿206﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿207﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ البقرة/**204-208**.

هذه الصورة النابضة بالحيوية هي حال وضعنا مع اسرائيل التي تهلك الحرث والنسل، ومن ثم فكيف ندخل معها في السلم كافة، وهي بهذا تأخذها العزة بالإثم فحسبها جهنم ولبئس المهاد، هذا ومن الممكن أن نمضي في تداعيات الوصل والصلة الكونية بين هذه البنائيات المتداخلة والمترابطة فيما بينها إلى ما لانهاية من العائلة إلى المجتمع، ومن الاقتصاد إلى السياسة، ومن فعاليات العقل إلى قيم الأخلاق، ذلك الإنسان المطلق الذي يدخل السلم مع ربه ومع نفسه ومع مجتمعه، ومع كونه الطبيعي المسخر له بقوة القوانين الطبيعية التي يسترد الدين فلسفتها إليه، مبرأة من الوضعية والشرك والكفر، لينتهي في النهاية حراً كالطير في جو السماء لا يمسكهن إلا الله، وليس كعبد البشر المملوك للبشر، او الأمة المستفيدة الأخرى سواءاً كان في زارعاً في الأرض أم عاملاً في مصنع، فكل هذه الأنظمة الطبقية، إنما تعيد طبقاتها العليا: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿73﴾ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ

إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿74﴾ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿75﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ **النحل/73-76**، هذه عين علاقتنا مع إسرائيل فهي لا تقبل أن تخضع لمبدأ وحكم، وقد أفصحت عن ذلك برفضها وقف المستوطنات في الضفة الغربية وهو ما سنوضحه في البحث المقبل.

وفي النهاية فعلاقتنا مع إسرائيل لا تحكمها ضوابط (الدخول في السلم كافة) فما هي إذن حملها وحمولتها وضوابطها).

المبحث الثالث

الحضارة العربية الإسلامية تؤسس على فكرة الحق

بالطبع لا يكفي لدينا أن نقول إن القرآن المجيد قد هندس فكرة الحق وحرث مضمونها وأبان مفاصلها وشعابها، وإنما تلمس استجابة العرب والمسلمين لهذا النص القرآني وأخذهم بتلابيبه وشربهم لروحه.

ولكي نبرهن على هذه المقولة سنعرض بالتالي لثلاثة استقيناها من العقيدة والفلسفة وأخيراً من الحضارة وكما هو موضح أدناه.

الفرع الأول

في العقيدة (الإمام الأعظم أبو حنيفة) ودعوته الكتابية إلى كلمة السواء المشتركة

إن صياغة منظومة للعلاقات الاجتماعية من الناحية الفقهية كانت تحتاج إلى وضوح نظري في البداية في مسألة صلة الإسلام بالشرائع الأخرى، ثم في وظيفة الإسلام في العالم، ونجد هذا التنظير أول ما نجده عند أبي حنيفة/150هـ/.

الفقيه المعروف وصاحب المدرسة الفقهية التاريخية المشهورة، وذلك في رسالته **العالم والمتعلم**، لقد رأى أبو حنيفة فيما يتصل بوظيفة الإسلام في العالم:

((إن اللّه عزّ وجلّ إنما بعث رسوله رحمةً ليجمع به الفرقة، وليزيد الألفة، ولم يبعثه ليفرق الكلمة ويحرض الناس بعضهم على بعض[1]...))، إن هذه الوظيفة التوحيدية للإسلام هي التي تعطي لكل أمر آخر معناه المنطقي وسط المنظومة الشاملة، منظومة الاستيعاب والوحدة والتوحيد، وكان طبيعياً بعد هذا أن يزيل أبو حنيفة كل أسباب سوء الفهم فيما يتصل بعلاقة الإسلام، بالشرائع الأخرى، يقول

[1]- العالم والمتعلم: رسالة أبى حنيفة الى البتى، تحقيق محمد زاهد بن الحسن الكوثري، (القاهرة، 1368هـ)، ص9.

أبو حنيفة[1]: ((إن رسل الله لم يكونوا على أديان مختلفة، ولم يكن كل رسول منهم يأمر قومه بترك دين الرسول الذي كان قبله لأن دينهم كان واحداً، وكان كل رسول يدعو إلى شريعة نفسه وينهي عن شريعة الرسول الذي قبله لأن شرائعهم كثيرة مختلفة))، ولذلك قال الله تعالى[2]: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً ولو شاء الله لجعلكم أمةً واحدةً﴾ **المائدة/48**، "لكل جعلنا منكم شرعةً ومنهاجاً"، ولو شاء الله لجعلكم أمةً واحدةً "أي في الشريعة" وأوصاهم جميعاً بإقامة الدين وهو التوحيد وأن لا يفتقروا لأنه جعل دينهم واحداً[3]: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ **الشورى/13**.

فالدين لم يبدل ولم يحول ولم يغير، والشرائع قد غيرت وبدلت لأنه ربَّ شيءٍ قد كان حلالاً لأناس قد حرمه الله عزّ وجلّ على آخرين....

لقد رأى "أبو حنيفة" أن الدين واحد هو التوحيد والشرائع مختلفة، فإن اتفق آخرون مع المسلمين، فاختلاف الشرائع جزئي، وعلى الفقيه أن يفهم هذا الحق الوحدوي للإسلام الذي يريد جمع الناس، وتوحيد المجتمع من مبدأ الاعتراف باختلاف الشرائع، أي إمكان وجود شريعة اجتماعية أخرى غير الشريعة الإسلامية لفئات اجتماعية، تعيش مع المسلمين في مجتمع واحد، بل إن اتباع أبي حنيفة مضوا قدماً في هذا السبيل فقالوا إن أهل الكتاب الذين تحدث عنهم

---

[1] – **أبو حنيفة** النعمان بن ثابت الكوفيّ: العالم والمتعلم، ص 10–11.

[2] – المرجع السابق، ص11.

[3] – المرجع السابق، 11–13.

القرآن ليسوا النصارى واليهود فقط[1]، بل (من أعدوا ديناً سماوياً مثل التوراة وصحف ابراهيم وشيث وزبور داود)، هذا على الرغم من أن هنالك آية في القرآن تشعر بأن المقصود بأهل الكتاب اليهود والنصارى فقط[2].

[1]- محمد بن علي بن محمد الحِصْني المعروف **بعلاء الدين الحصكفي**: الدر المختار شرح تنوير الأبصار وجامع البحار، 370/3، عثمان بن علي بن محجن البارعي **فخر الدين الزيلعي**: تبين الحقائق شرح كنز الدقائق، 110/2، تقي الدين محمد بن أحمد الفتوحي **ابن النجار الحنبلي**: منتهى الارادات.

[2]- منصور بن يونس بن إدريس **البهوتى**: كشاف القناع عن متن الإقناع، 704/1.

الفرع الثاني

على الصعيد الفلسفي

لقد اخترنا لهذا المقام أنموذجاً الفيلسوف المشهور بالمعلم الثاني "أبو نصر الفارابي"، وها نحن نتقل معه على صعيد الفلسفة وبالذات إلى علاقة الدين بالعكس بقول المذكور: ((وأما إن نقلت الملة من أمة كانت لها تلك الملة، إلى أمة لم تكن لها ملة، أو أخذت ملة كانت لأمة فأصلحت، فزيد فيها أو نقص منها أو غيرت تغييراً آخر، فجعلت لأمة أخرى فأدبوا بها وعلّموها ودبروا بها، أمكن أن تحدث الملة فيهم قبل أن تحصل الفلسفة، وقبل أن يحصل الجدول والسفسطائية، والفلسفة التي لم تحدث فيهم عن قرائحهم، ولكن نقلت إليهم عن قوم آخرين كانت هذه فيهم قبل ذلك، أمكن أن تحدث فيهم بعد الملة المنقولة إليهم.

فإذا كانت الملة تابعة لفلسفة كاملة، وكانت الأمور النظرية فيها غير موضوعة فيها كما هي الفلسفة بتلك الألفاظ التي يعبر بها عنها، بل إن كانت قد أخذت مثالاتها مكانها، إما كلها أو في أكثرها، ونقلت تلك الملة إلى أمة أخرى من غير أن يعرفوا أنها تابعة لفلسفة، ولا أن ما فيها مثالات لأمور نظرية صحت في الفلسفة ببراهين يقينية، بل سكتت عن ذلك حتى ظنت تلك الأمة أن المثالات التي تشتمل عليها تلك الملة هي الحق، وأنها هي الأمور النظرية نفسها، ثم نقلت إليهم بعد ذلك الفلسفة التي هذه الملة تابعة لها في الجودة، لم يؤمن من أن تُلحق الفلسفة وأهلها مضرة عظيمة من تلك الأمة وأهلها، فلذلك ربما اضطر أهل الفلسفة عند ذلك، إلى

معاند أهل الملة طلباً لسلامة أهل الفلسفة، ويتحرون أن لا يعاندوا الملة نفسها، بل إنما يعاندوهم في ظنهم أن الملة مضادة للفلسفة، ويجتهدون في أن يزيلوا عنهم هذا الظن بأن يلتمسوا تفهيمهم أن التي في ملتهم هي مثالات)).

إن ما يريد "الفارابي" أن يقوله في هذا النص واضح تماماً، ويمكن تلخيصه كما يلي:

أ- الدين الإسلامي هو الدين المسيحي وقد نقل إلى الأمة العربية معدلاً مصححاً.

ب- الدين المسيحي هو النواميس النظرية والعملية التي استنبطت من الفلسفة اليونانية النظرية والعملية ليؤدب بها الجمهور.

ت- الفلسفة المنقولة إلى الأمة العربية هي الفلسفة اليونانية التي كانت أصلاً للدين المسيحي وبالتالي فهي أصل للدين الإسلامي نفسه[1].

ث- إن الصراع بين أهل الدين الإسلامي (أهل السنة خاصة) وبين أهل الفلسفة في الإسلام يمكن حله بتفهيمهم جميعاً حقيقة الأمر، وهي أن ما في الدين هو مجرد مثالات لما هو في الفلسفة.

ج- إن الفلاسفة في الإسلام (والمقصود الفارابي بالذات) قد أدركوا فعلاً أن ما في الدين هو مثالات لما في الفلسفة، ولذلك كفوا عن معاندة الدين كدين، ولكن أهل الدين لم يدركوا بعد هذا الأمر، وكذلك فهم يعاندون أهل الفلسفة

[1]- يمكن أن نضع مكان (الدين المسيحي) هنا دين الصائبة الحرانية- الحنفية.

ويحولون دونهم ودون الرئاسة والتصدير في الأمور النظرية والعملية، أمور العقيدة والشريعة والسياسة المدنية.

ح- وبناء على ذلك كله، فإن مهمة الفلاسفة (مهمة الفارابي بالذات)، هي إقناع أهل الدين بأن الإسلام لا يضاد الفلسفة، وذلك بتفهيمهم أن ما في الدين مجرد مثالات لما في الفلسفة.

ولكن كيف يتأتى إقناع أهل الملة الإسلامية وتفهيمهم بأن ما في ملتهم هو مثالات لما في الفلسفة؟.

الطريق إلى ذلك هو التاريخ والمنطق، هو البرهنة الأيديولوجية على الأسبقية الزمنية والأسبقية المنطقية للفلسفة على الدين.

أما الأسبقية الزمنية فقد (برهنت) عليها مقالات (حدوث الألفاظ والفلسفة والملة) المنشورة في كتاب الحروف، إن أهل الملة الإسلامية لا يستطيعون أن ينكروا أن الدين المسيحي قد جاء بعد اكتمال الفلسفة اليونانية، وأنه استقى كثيراً من قضاياه من هذه الفلسفة ذاتها ولكن مع التعبير عنها بطرق التمثيل والمحاكاة، وهم أي أهل الملة الإسلامية، لا يستطيعون أن يعاندوا في كون الدين الإسلامي هو نفسه الدين المسيحي وقد عدل وصحح، فالقرآن نفسه يقرر ذلك.

وأما الأسبقية المنطقية التي للفلسفة على الملة فتشرحها مقالة كتاب الملة، ففي هذه المقالة يعمد الفارابي إلى المقايسة بين أقسام الفلسفة وأقسام الملة، تماماً مثلما فعل عند مقارنته تطور الفكر الفارابي اليوناني بتطور الفكر الإسلامي ولكن مع هذا الفارق، وهو أنه في مقايسته الأولى قرأ تاريخ الفكر اليوناني قراءة عربية

إسلامية، أما الآن فهو سيقرأ الملة الإسلامية قراءة فلسفية يونانية، تمهيداً لمدينته الفاضلة.

يقول "الفارابي" : ((الملة تلتئم من جزأين: من تحديد آراء وتقدير أفعال، فالضرب الأول من الآراء المحددة في الملة ضربان: إما رأي عبّر عنه باسمه الخاص الذي جرت العادة بأن يكون دالاً على ذاته، وإما رأي عبّر عنه باسم مثاله المحاكي له، فالآراء المقدرة التي في الملة الفاضلة إما حق وإما مثال الحق، والحق بالجملة ما تيقن به الإنسان إما بنفسه بعلم أول، وإما ببرهان، وكل ملة لم يكن الضرب الأول من الآراء التي فيها يشتمل على ما يمكن أن يتيقن به الإنسان، لا من ذاته، ولا ببرهان ولا كان فيه مثال لشيء يمكن أن يتيقن به بأحد الوجهين، فتلك ملة ضلالة)).

((والملة الفاضلة شبيهة بالفلسفة، وكما أن الفلسفة منها نظرية، ومنها عملية، فالنظرية الفكرية هي التي إذا علمها الإنسان لم يمكنه أن يعملها، والعملية هي التي إذا علمها الإنسان أمكنه ان يعملها، كذلك الملة، والعملية في الملة هي التي كلياتها في الفلسفة العملية، وذلك أن تلك التي في الملة من العملية هي من العملية هي تلك الكليات مقدرة بشرائط قيدت بها، فالمقيد بشرائط هو أخص مما أطلق بلا شرائط... فإذن، الشرائع الفاضلة كلها تحت الكليات في الفلسفة العملية، والآراء النظرية التي في الملة براهينها في الفلسفة النظرية وتؤخذ في الملة بلا براهين، فإذن، الجزآن اللذان منهما تلتئم الملة هما تحت الفلسفة...، فإذن،

الفلسفة هي التي تعطي براهين ما تحتوي عليه الملة الفاضلة، فإذن، المهنة الملكية التي عنها تلتئم الملة الفاضلة هي تحت الفلسفة[1])).

وهكذا ((فالملة إذا جعلت إنسانية أي إذا كانت دعوة للناس كافة، وكانت أساساً لبناء دولة فهي متأخرة بالزمان عن الفلسفة، وبالجملة، إذا كانت إنما يلتمس بها تعليم الجمهور الأشياء النظرية والعملية التي استنبطت في الفلسفة، بالوجوه التي يتأتى لهم فهم ذلك، بإقناع أو تخيل أو بهما جميعاً[2])).

[1]- أبو نصر محمد بن محمد **الفارابي**: كتاب الملة والنصوص الأخرى، حققها وقدم لها وعلق عليها محسن مهدي، بيروت، دار المشرق،1968، ص 46-47.

[2]- المرجع السابق، ص131.

الفرع الثالث

سمات الحضارة العربية الاسلامية[1]

هذا المقال هو بالأصل "د. قسطنطين زريق" كما هو متصل أدناه في الهامش، حيث كنا حريصين على إيراد وعرض هذه المحاضرة بحرفيتها باعتبارها تبلور فكرة الحق أساساً للحضارة العربية، وهاكم المحاضرة المذكورة بحرفيتها، يقول "الدكتور زريق":

((إن الموضوع الذي أقوم ببحثه[2] واسع الأطراف معقد النواحي، لأنه موضوع يتناول حياة جزء كبير من البشرية وما قدمه هذا الجزء من خدمات غلى الحضارة الإنسانية خلال أعصر عديدة)).

وهذا الجزء من البشرية عريق في القدم، وهاهم علماء الآثار والمؤرخون يكشفون النقاب يوماً بعد يوم عن المآتي العظيمة التي قام بها العرب القدماء، وبفضل أبحاثهم أخذت الحجب الكثيفة التي حجبت شبه الجزيرة العربية أعصراً تنقشع، فظهر لنا أن بلاد العرب كانت فيما مضى إحدى المراكز الرئيسية للحضرة في العصور القديمة إن البذور التي بذرت في القدم السحيق، والتي أينعت في العصور القديمة والمتوسطة في المراكز العربية المختلفة، والتأثيرات التي كانت الجزيرة

---

[1] – نشر في: الأبحاث، السنة 2، الجزء 1 (آذار/مارس 1949)، ص3–22.

[2] – وهي المحاضرة القيمة التي ألقاها بالإنكليزية د. قسطنطين زريق، نائب رئيس الجامعة الأمريكية في بيروت في مؤتمر اليونيسكو الذي انعقد في بيروت.

العربية عرضة لها من كل صوب، وجميع هذه مهدت السبيل للنهضة العربية العجيبة في القرن السابع الميلادي، ففي هذا القرن خرج العرب من جزيرتهم وبوحي من تعاليم نبيهم محمد ﷺ، ليؤسسوا امبراطورية من أعظم امبراطوريات العالم، ولينشئوا حضارة من أمجد الحضارات التي عرفها التاريخ.

كانت الحدود الجغرافية لهذه الحضارة تمتد من غربي الصين إلى المحيط الأطلسي ومن بحر قزوين إلى أواسط إفريقيا، وكانت اللغة العربية التي تعبر عن روح هذه الحضارة اللغة المعترف بها كأداة لنشر الثقافة والعلم، وكان طلاب العلم والنور من جميع أنحاء المعمورة يفدون زرافات إلى مراكز هذه الحضارة في سوريا والعراق وفارس ومصر والأندلس وغيرها.

وقد سرى أثرها شرقاً إلى بقاع شاسعة، وغرباً في مجارٍ مختلفة إلى أوروبا في العصور الوسطى ممهداً السبيل، بالاشتراك مع عوامل أخرى، لعصر الأحياء ولقيام الحضارة العربية الحديثة، وهذه الحضارة هي أسس الحضارة التي تقوم عليها الحياة العربية الحديثة والتي تبني عليها الشعوب العربية من إيران إلى الأطلسي، شعوب تحتل بقاعاً من أهم المراكز الاستراتيجية في العالم وطابع هذه الحضارة ظاهر في الشعوب الإسلامية في كل قطر.

ولاشك في أنكم تشعرون معي أنه لا يمكن أن نأتي خلال ساعة من الزمن على ذكر جميع النواحي لهذه الحضارة الغنية بثمارها، العريقة في قدميتها، الشاسعة في رقعتها الجغرافية، ولو أن لدينا من الوقت متسعاً لكان من الخير أن نساير مجرى هذه الحضارة مبتدئين من الينابيع المختلفة التي غذّتها عبر الأقطار التي جرت فيها فأحيتها وانهضتها إلى أن نصل إلى التيارات المتقاطعة والتشعبات المختلفة التي آلت إليها هذه الحضارة، وفي رحلتنا هذه عبر الزمان والمكان نجد

عند كل خطوة وعند كل منعطف ما يثير فينا حب الاستطلاع والبحث ولكن يستحيل علينا هذا.

فإننا وإن قصرنا البحث على ما قدمته هذه الحضارة فعلياً إلى الحضارة العالمية، نجد أنفسنا أمام مجموع من الحقائق المثبتة التي لا تحتاج إلى جدل، كما وأننا نجد أمامنا جملة من القضايا التي لا تزال عرضة للأخذ والرد، فلا يمكن والحالة هذه أن نأخذ بالموضوع من جميع أطرافه، ولن نحاول في هذه المحاضرة أن نرد بإسهاب قصة الحضارة العربية أو أن نأتي على ذكر خدماتها المتنوعة في حقل الفكر الإنساني.

الواقع إننا لا نرى لهذا ضرورة، فقد انقضى ذلك الزمن الذي كان فيه تاريخ الحضارة العربية محاطاً بالغموض، فقد هتكت بحوث العلماء المؤرخين من جميع الشعوب في القرن الأخير حجب الظلمة عن كثير من نواحي هذه الحضارة، فأصبحت بفضل جهودهم تحتل مكانتها السامية في تاريخ التطور الإنساني.

واليوم وقد أخذت معالم هذه الحضارة بالبروز إلى العيان، بدا العالم، أو على الأقل العالم المتأدب المستنير يقر بما كان لهذه الحضارة من فضل، وإني احيل منكم من يود الاطلاع على سير هذه الحضارة عبر التاريخ، بشيء من الإسهاب والإجمال، إلى هذه الدراسات التي قام بها الأفاضل من العلماء، أما هدفي فهو النظر إلى الحضارة العربية في ضوء الأهداف التي جمعتنا معاً، بمنظار الرجل العصري الذي يسعى إلى توطيد السلام عن طريق التعاون الثقافي، لأن هذه هي الطريقة المجدية لمعالجة هذا الموضوع في الظرف الحاضر، وإني أسأل نفسي: ماهي رسالة الحضارة العربية لعالم اليوم، وما هي رسالتها بصورة خاصة لنا نحن ولحكوماتنا في سعينا الحثيث بواسطة "اليونيسكو" لتوطيد السلم والتفاهم؟ هل في تاريخ نمو

هذه الحضارة وازدهارها ثم تقهقرها، من العبر والعبارات ما يسدد خطانا فنأمن معها شر العثار في سيرنا في هذه المغامرة؟.

سأحاول الإجابة عن أسئلة كهذه، وأول حقيقة هي أن نهضة روحية رافقت، إن لم نقل سببت نشوء الحضارة العربية، وقد بدت تباشير هذه النهضة في النصف الأخير من القرن السادس الميلادي، أو ربما قبل هذا الزمن، ولكن كان للنبي محمد ﷺ أن يجمع تيارات هذا الوعي الروحي إلى تيار واحد، وكان جوهر رسالته وحدانية الله والإيمان برسله وأنبيائه الذين كان محمدﷺ خاتمتهم، وكان وحي الله له خاتمة الوحي، وقد أذكت شخصيته في نفوس اتباعه ناراً وجعلت من أولئك الأشخاص العاديين قادة رجال، وبقيادتهم الحكيمة خرج العرب من جزيرتهم لينشئوا امبراطورية من أعظم امبراطوريات العالم وحملوا مشعل حركة دينية إلى شعوب مختلفة ينضم تحت لوائها اليوم أكثر من 250 مليوناً من البشر.

إن جهود بعض العلماء الذين حاولوا أن يعللوا نشوء الحضارة العربية على أساس مادي محض، هي في نظري، جهود فاشلة، فإنهم نظروا إلى الفتوحات العربية التي قام بها العرب بعد خروجهم من الجزيرة أنها لا تختلف بكثير أو قليل عن تلك الهجرات السامية من الجزيرة العربية التي كانت تفرضها الأحوال الجوية والعوامل الاقتصادية الخانقة، وقد بالغوا في وضع أهمية على عوامل الضعف والتفكك التي تميزت بها الامبراطورية البيزنطية والفارسية آنذاك، وهم إنما يريدون بذلك الانتقاص من مآتي العرب بوجه عام والتقليل من قيمة العوامل الروحية بوجه خاص، وفي رأيهم أن الفتوحات العربية ليست سوى مجرد حملات عسكرية اقتضتها العوامل الاقتصادية أو العوامل السياسية أو كلاهما معاً.

إن جميع هذه التفاسير التي قد يكون فيها، ضمن نطاق معين، بعض الحقيقة لا يمكن أن تفسر الأسس الروحية التي قامت عليها النهضة العربية، ولا يمكن لتفاسير كهذه أن تطمس الحقيقة الناصعة وهي أن الحكم العربي والتصرف العربي، والعلوم العربية والخلق العربي جميع هذه كانت مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالدين الإسلامي، وكانت جميع هذه المظاهر الروحية والفكرية تقدمية خلاقة منسجمة مع سير الروح العربية نحو مثل من الحياة أسمى وأشرف، وقد كانت هذه المثل، هذه الرؤى خلال القرنين أو الثلاثة بعد موت النبي محمد ﷺ قوة حية، وكانت حيوية الحضارة وقوة الإبداع في الامبراطورية على أشدهما، ولكن عندما خفتت الرؤى وعندما اكتنف المثل ما حجبها عن الأنظار أصبحت الحياة السياسية عند العرب كفاحاً مريراً بين دولة إسلامية وأخرى، أو بين الأحزاب والشيع والأعراق البشرية للوصول إلى الحكم والسيطرة، وكان هذا فاتحة عصر التجزؤ والتفكك.

وهذا يصدق على الدين الإسلامي نفسه، الذي كما أسلفنا سابقاً، كان يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالحياة العربية وبالثقافة العربية، فقد كان الدين الإسلامي عندما كان محتفظاً بدوافعه وحوافزه الأصلية، أشبه بخميرة تؤثر في النظام السياسي، وكان الدين يفتح أمام عيون الناس آفاقاً جديدة واسعة في الحياة العملية والتأملية، ولكن عندما اقتصر الدين الإسلامي فيما بعد على مجموعة المعتقدات التي يجب أن يتقبلها الناس عن طريق الإيمان الأعمى، وعندما استحال إلى مجموعة شرائع وقوانين أخلاقية تفرض على الناس لتطبق عن عماية وبقسوة فقد أصبح كما يصبح أي دين آخر في ظروف كهذه وقراً بدلاً من أن يكون وحياً،

وقيداً يشل بدلاً من أن يكون قوة تعتق، هذا التقيد الحرفي يقتل في المرء كل سعي وتقدم.

لا أرغب في مثل هذا الوقت أن أسلك مسلكاً شائكاً في التعليل التاريخي فأحاول أن أزيل ما علق من أوهام في هذه الناحية من التاريخ العربي، وأعني بها العوامل الروحية والمادية في الحياة العربية والحضارة العربية، فإننا نعلم اليوم أن الحياة الإنسانية كثيرة التعقيد وكثيرة العوامل، عامل يؤثر بالآخر، ونعلم أيضاً أنه لا يمكن لعامل واحد فقط مهما كان هذا العامل قوياً نشيطاً أن يعلل ظاهرة الحياة بكاملها، ولكني أود أن أبين بجلاء وأعتقد أنني على صواب في ما أذهب إليه أن الحضارة العربية، كأية ظاهرة تاريخية مشابهة لها، استمدت قوتها وإبداعها من إحياء روحي داخلي في صدور الناس، وقد تجلى هذا الإحياء في مفاهيم جديدة للكون وللإنسان، في إيمان أرسخ، وفي آفاق أوسع، وفي ولادة ثانية للشخصية، الشخصية التي تحلم وتفكر وتنشئ حياة جديدة، ولكن ما إن نضب معين هذه الحيوية، ما إن جف نبع هذه القوى حتى أخذت هذه الحضارة بالأفول، وظلت قروناً عدة هذه عدتها في حالة سبات، وبكلام آخر إن القصة العربية شاهد على تلك الحقيقة البسيطة الأساسية وهي أن الأمة إنما تحيا وتعيش بالرؤى (بكل ما في هذه الكلمة من معنى) وبدونها تموت.

هل في درس تاريخ الحضارة العربية من عبرة لنا اليوم؟ ألسنا جميعاً نبدي اهتماماً بمستقبل المدينة الحديثة؟ مشكلة اليوم، لا بل مشكلة الساعة، هي هل بالإمكان إنقاذ المدينة منم الدمار، أو بالأحرى إنقاذ الحياة الإنسانية نفسها؟ وهل يمكن حفظ القيم الإنسانية وضمان البقاء والاطراد لها؟ إن خطورة هذه المشكلة يجب أن تستحوذ على نشاط اليونسكو ومنظمة الأمم المتحدة، هل هذه المدينة

الحديثة في حالة تقدم أما تأخر، في حالة نمو وازدهار أم تفسخ وتقهقر؟ هل نجد في الرجل العصري حافزاً روحياً؟ هل يؤمن بالقيم الفكرية والروحية ويحرص عليها؟ هل يترفع عن الشره والنهم للقوة وعن كل ما من شأنه أن يحط من قدر الكرامة الإنسانية؟.

أعتقد أنه يمكن أن نحصل على أجوبة أسئلة كهذه إذا تتبعنا برؤية قصة الحضارة العربية.

إن خلاص المدينة الحديثة يتوقف على هذه الولادة الروحية، فإنه يمكنا أن نوطد أركان السلم، ونضمن للبشرية وسائل الخير والتقدم ونستطيع أن نحتفظ بمثلنا العليا فقط عندما تتغير قلوبنا جميعاً رجالاً ونساءً، وإننا إذا عجزنا عن إحداث هذا التغيير في نفوسنا، فلا نفع للاتفاقات السياسية والمعاهدات العسكرية حتى والمؤسسات الشريفة التي نقيمها، كمنظمة الأمم المتحدة، وأجرؤ أن أقول منظمة اليونسكو هذه، فإنها لا تجدي نفعاً، قد تستطيع هذه المؤسسات أن تزيل أخطار الحروب ولو إلى فترة، ولكن لا يمكن أن تقضي على أسبابها، وكما أن الحضارة العربية في العصور الوسطى ولدت أثر الرؤى وأثرها في بعث النشاط ورفع الحياة الإنسانية إلى مراتب سامية.

لم تكن حوافز المدينة العربية وعواملها الخلاقة روحية فحسب، بل كانت عالمية في واقعها وفي غاياتها، أو ربما كان الصواب أن نقول إنها كانت عالمية النزعة بفضل صفتها الروحية ففي نطاق المعتقدات نجد أن نقطة البدء فكرة وحدانية الله مبدع الكون وخالقه، الحاكم الذي يدين الناس حسب أعمالهم، وبيده أقدار الناس، كل شيء من صنعه وكل شيء رهن إرادته، هو مبدأ النظام والثبوت والنمو في الكون وفي الحياة الإنسانية، وقد يختلف الناس في أعراقهم وبلدانهم، ولكن يجمع بينهم

وبين ولاؤهم إلى الله الذي يربط بينهم ويجعل منهم أخوة واحدة في الإسلام، فهنالك وحدة أساسية في الشرية، وحدة مصدرها وحدانية الله مصدر كل شيء.

نعم إن هذه الرابطة اقتصرت على أتباع الدين الإسلامي، ولكن هذا يصدق أيضاً على العالم المسيحي في العصور المتوسطة، فإن كلاً من هاتين الديانتين كانت نظاماً تاماً بنفسه، وكان أتباع الدين الواحد ينظرون إلى أتباع الدين الآخر أنهم خارج الحظيرة، وكان هؤلاء يعتقدون أن من واجبهم تبشير أولئك وردهم إلى حظيرة الإيمان أو أن الواحد منهم كان يعتقد أن أقطار الآخر نهبٌ له يفتحها أنى شاء، وهكذا نرى أن البشرية لم تكن موحدة لا في الواقع ولا في المعتقد، وبكلام آخر كانت النظرة إلى هذه الوحدة العالمية، أو الوحدة البشرية في العصور المتوسطة تختلف الواحدة عن الأخرى اختلافاً ظاهراً.

ولكنني أود هنا أن ألفت أنظاركم إلى أن النظرة العالمية في هذين النظامين، الإسلام والمسيحية، كانت رغم الفروقات واحدة في جوهرها، أو على الأقل كان التشابه بينهما أقرب بكثير مما كان بينهما وبين نظرتنا الفلسفية العصرية المادية في تعليل الكون ورغم المشاحنات التي وقعت بينهم، ورغم الجدل العنيف الذي وجدوا أنفسهم فيه، فإن المسلمين والنصارى كانوا يتفاهمون، أو قل كانوا أقرب إلى التفاهم مما يستطيع الواحد منا، نحن الذين اعتنقنا النظرة العصرية المادية أن يفهم أياً من هذين النظامين، وذلك لأنهم كانوا يصدرن عن المبادئ الأساسية نفسها وعن الذهنية نفسها.

فالحضارة العربية إذاً ضمن الإطار الذي حددناه، كانت تعكس نظرة فلسفية عالمية في جوهرها، ومادامت هذه النظرة مسيطرة، ومادام أبناء هذه الحضارة يشعرون أنهم مرتبطون بأواصر من الولاء المشترك الذي يرتكز على وحدانية الله وبالتالي على وحدانية الكون والإنسان، أقول مادام الواقع هكذا فإن الامبراطورية التي أنشأها العرب ظلت محافظة على قواها الداخلية وعلى دوافعها التقدمية،

وظلت الحضارة العربية تنم وتبدع، غير أن أثر هذه النظرة العالمية الأساسية في الحياة الواقعية أخذ بالتقلص رويداً كما حدث لحضارات أخرى قبل الإسلام وبعده، فنشأ خصام مميت داخل الامبراطورية العربية، فقام العربي ضد الفارسي والفارسي ضد العربي وقل هذا عن بقية العناصر من تركية وبربرية ومغولية، وكان كلٌ يحاو أن يستقل بالحكم والسيطرة السياسية، وأخذت الأفراد والدويلات تناضل في سبيل الحصول على القوة والحكم وقامت المنافسات الحزبية والطائفية تحز في أسس الدولة.

وإني لا أرى ضرورة في سرد أسماء وتواريخ خيفةَ أن يثقل هذا على مسامعكم، ولكن الحقيقة الأساسية التي أرغب إليكم أن تعيروها انتباهكم هي أن هذا الولاء الشامل العام، هذه النظرة العالمية تقلص ظلها ليحل محلها نظرة ضيقة كان من نتائجها أن الحوافز الروحية أصبحت حوافز مادية تنشد الحكم والسيطرة بدلاً من أن تنشد أهدافاً سامية.

ولكن ينبغي أن أذكر أن هذا التراخي في النظرة العالمية وزوالها أخيراً من الحياة الواقعية، أثر في النطاق السياسي أكثر مما أثر في النطاق الثقافي، لأنه بعد أن دب الانقسام بين مختلف الأعراق والأحزاب والطوائف ظل ولاة الأمر على شيء من التعاون الثقافي، والذي كانت السياسة تفسده كانت الثقافة تصلحه، وتطور الحضارة العربية يرينا أن هنالك وحدة أساسية في النشاط الفكري كانت تفوق وتسمو على الفروقات السياسية.

كان الرحالة الذي يطوف في الوطن العربي يمر في دويلات عديدة، وكان يأتي على وحدات سياسية عدة أحياناً في حالة حرب ولكن أنى ذهب، من أواسط آسيا إلى إسبانيا، كان يجد وحدة في الثقافة، ثقافة ذات لغة واحدة مشتركة هي العربية، وكان يشعر أن هنالك نظرة عالمية واحدة توحد بينهم، وإننا سنعود إلى بحث هذه

الوحدة الثقافية فيما بعد، أما النقطة التي أريد أن أجملها الآن وهي الحقيقة الأساسية الثانية عن الحضارة العربية والتي لها مغزاها البعيد في هذه الآونة هي أن صمود الحضارة العربية وإبداعها مرتبطان بنظرتها العالمية.

وكان هذا الصمود والإبداع يتناسبان وفعالية هذه النظرة وقوتها في نطاقي السياسة والثقافة، فهل لهذه النتيجة التي توصلنا إليها علاقة أو صلة بالمدينة الحاضرة؟ هل المدينة العصرية عالمية في روحها حقاً؟ في بعض نواحي الحياة، مدنيتنا العصرية عالمية موحدة، فهناك التقدم العجيب في الآلة والتغلب على المسافات الشاسعة، وتعميم وسائل النقل والإذاعة، ونواحي أخرى عديدة من تقدمنا الآلي العجيب، جميع هذه عوامل فعالة تعمل معاً لتوحيد الحياة والثقافة، ولوضع مقاييس موحدة مشتركة، ولكن هذا التوحيد في الحياة وفي المقاييس يعمل في المستوى الخارجي المادي الوضيع للحياة، ففي الوقت ذاته نرى أن المصالح القومية والعنصرية والطبقية لا تزال قوية، إن لم نقل أقوى مما كانت عليه، ونجد أن لشعوب تستغل هذه القوى الآلية لتوسيع الفجوة بين البشر ولزيادة التوتر بين العناصر المختلفة.

وبذلك ينقادون إلى حروب أشد هولاً ويجرون البشر معهم إلى شفير الخراب والهلاك المحقق.

إن النظرة العالمية التي نحن بحاجة إليها يجب أن تكون على مرتبة فكرية روحية أسمى، يجب أن تكون نظرة عالمية واحدة في جوهرها تتغلغل غايتها إلى صميم وعي الشعوب في العالم وتكون الحافز في حياتهم السياسية وتصرفاتهم العادية. هذه في نظري هي العبرة التي يمكن أن نعتبرها من دراسة الحضارة العربية أو أية حضارة أخرى من حضارات العصور المتوسطة، وإذا كانت النظرة العالمية لتلك

العصور الخوالي لا تروق لفكر الحديث، فحري بنا أن نبذل قصارى الجهد في إيجاد الأسس لنظرة عالمية جديدة عصرية وإن نتبناها، ونعمل على رقيها ونشرها في العالم كله.

هذا في نظري الوضيع شرط من شروط الرقي الأساسية، الرقي الذي هو حياة الحضارة، وهذا هو المقياس الذي به يجب أن نحكم على قيمة الجهود التي نبذلها كأفراد وأمم وعلى مدى الخدمات التي تسديها مؤسساتنا من العائلة إلى منظمة الأمم، وأخص بالذكر منظمة "اليونيسكو" التي أخذت على عاتقها مهمة توجيه النشاط القوى في حقل التربية والعلم الثقافية، لتوطيد السلم ورفع شأن الحرية والكرامة.

لم تكن هذه النظرة العالمية التي تميزت بها الحضارة العربية ترتكز على وحدانية اللّٰه وأخوة الأفراد الذين اعتنقوا الإسلام وحسب، بل على وحدانية الحق، لم يكن الحق في نظر فلاسفة العرب ذاتياً ونسبياً بل كان موضوعياً ومطلقاً، وواجب الإنسان أن يعرف الحق ويسير مع الحق ويبقى مع الحق، ولمعرفة الحق عند مفكري العرب سبيلان: **السبيل الأول** الوحي، بواسطة كلام اللّٰه الموصى به إلى النبي محمدﷺ كما هو في القرآن، **والسبيل الثاني** الحكمة والفلسفة التي وضعها القدماء ولا سيما "أفلاطون وأرسطو"، والحق في نظرهم واحد سواء عرفه الإنسان من طريق الوحي أو من طريق الفلسفة، وواجب الإنسان أن يعرف الحق معرفة تامة، وهذا هو السبب الذي دفع العرب إلى إبداء ذلك النشاط العجيب في طلب العلم والتعليق عليه ومحاولة التوفيق بين السبيلين، وطبيعي أن يكون هنالك متطرفون من اتباع هذه الطريقة أو تلك لم يتبعوا هذه الطريقة المثلى في معرفة الحق، فقد كان هنالك فلاسفة حاولوا أن يفسروا النصوص الدينية تفسيراً

مجازياً، وكان هنالك محدثون ورجعيون يقولون أن الفلسفة وثنية في جوهرها مفسدة للمعتقدات، ولكن رغم وجود هذه الطغمة فقد كان الفكر العربي الفلسفي واللاهوتي يرتكز إلى وحدة الحق الجوهرية سواء كان التوصل إليه عن طريق الوحي أو عن طريق الفلسفة، وقد حاول مفكرو العرب أن يظهروا هذه الوحدة الأساسية للحق.

وهكذا نجد أن الفلسفة العربية كاللاتينية، كانت تهدف إلى التوفيق وإلى التركيب synthesis وقد عكف فلاسفة العرب ولاهوتيوهم على طلب الحق المطلق العام في مظاهره المختلفة، وبما ان الحقيقة واحدة فالحق يجب أن يكون واحداً ما أحوج عالم اليوم المجزأ فكرياً وخلقياً، العالم الضائع بين النظرات والمعتقدات المختلفة المتضادة إلى أن يعتبر بهذه العبرة، هذا الانقسام، هذا التجزؤ الذي نشهده في العالم اليوم سببه محاولتنا معرفة الحق عن طريق الذاتية الخاطئة وتجزئة الحق الذي لا يتجزأ.

وفضلاً عن الفلاسفة وعلماء الدين كان هنالك جماعة من المتصوفة التي كانت تؤكد وحدانية الله والبشرية والحق، كان أولئك المتصوفون يحلقون في عوالم الروح، وكانوا يمثلون أعلى ما توصل إليه الإبداع في الدين، كانوا في تفكيرهم يرتفعون عن حرفية المعتقدات والشرائع وكانوا يرون في الشخصية الإنسانية وحدة تامة، كانوا يضعون الحب في مرتبة أعلى من الإيمان، وكانوا عالميين فبتشوقهم إلى الحياة الفضلى، كانوا يرون في هذا العالم المتعدد المظاهر حقيقة واحدة هي الله، قال أحدهم: ((اللهم أني لا أنصت إلى صراخ الحيوان أو حفيف الأشجار أو هدير الماء أو زقزقة العصافير أو إلى هبوب الريح أو قصف الرعد دون أن أشعر أنها شاهد على وحدانيتك وبرهان على أنك أنت لا شبيه لك))، كانوا

يؤثرون الاختبار الروحي ويفضلونه على الشرائع والمعتقدات، فكانوا يتقبلون الحق من أي مصدر جاءهم وكانوا بعملهم هذا يؤكدون وحدانية الحق ووحدانية البشرية بقطع النظر عن الأديان والحدود التي تفرق بينهما، قال ابن العربي:

لقد صار قلبي قابلاً كل صورة فمرعى لغزلان ودير لرهبان

وبيت لأوثانٍ وكعبة طائف وألواح توراة ومصحف قرآن

أدين بدين الحب أنى توجهت ركائبه فالحب ديني وإيماني

إننا نجد في هذا التشوف الصوفي صفة من أجمل ما تتصف به الحضارة العربية أو بالأحرى الإسلامية أو أية حضارة خلاقة أخرى، ونجد فيه أيضاً أفضل شاهد على أن ثماراً كهذه لا يمكن أن تنمو إلا في تربة مشبعة بالنظرة العالمية، بالإيمان الراسخ في وحدانية الله والبشرية والحق.

وهنا أيضاً نجد أن لنتائج الحضارة العربية مغزىً عميقاً في حياتنا الحاضرة، فإن تاريخ هذه الحضارة يظهر لنا بجلاء حقيقة الينبوع الذي كانت تستمد منه الحياة والقوة والمنعة فنحاول، إن كنا جادين، أن ننهل من هذا الينبوع فننعش بمائه ما كاد يذوي.

كان لهذه النواحي في الحضارة العربية التي جئت على ذكرها باقتضاب أعني الدوافع الروحية والنظرة العالمية والإيمان الراسخ بوحدانية الحق أثر بعيد الغور في واقع الحياة، وأبلغ أثر هو الروح التعاونية التي اتصفت بها الثقافة العربية فإنه عندما خرج العرب من جزيرتهم إلى البلدان وريثة الحضارة المتتابعة التي نشأت في تلك البلدان، والتي تعود بتاريخها إلى فجر التاريخ، واستقروا فيها لم يقضوا على

تلك المدنيات ولم يستأصلوا شأفتها كما فعل غيرهم من الفاتحين قديماً وحديثاً، بل على عكس هذ فإنهم بعقلٍ نيرٍ وروح سمحاء شجعوا على استمرار نمو تلك المدنيات وهيأوا أوضاعاً من شأنها توحيد هذه المدنيات في مدينة واحدة.

والواقع أن الحضارة العربية ليست من نتاج شعب واحد بل هي مشروع تعاوني اشركت فيه مختلف الأعراق البشرية ذات الحضارة والديانات المختلفة، نصارى ويهود، عرب وآراميون، فرس وأتراك، بربر وغيرهم كثير، وجميعهم اشتركوا في هذا المجهود المشترك، وكل أمة قدمت ما تميزت به حضارتها، فكانت خدمات العرب تنحصر في الناحية الدينية، في الحافز الروحي الذي يتجسم في الدين الإسلامي، وكذلك في الناحية اللغوية، فإن عبقرية اللسان العربي استطاعت أن تجعل من نفسها أداةً لتعبير عن هذه الحضارة، وأخيراً تميزت خدمات العرب لهذه الحضارة في الذوق الأدبي المرهف، أما الفرس فإنهم قدموا نظام الإدارة والفنون الأدبية والفن، وكانت خدمات الهند في حقل الحكمة والفلسفة وعلم افلك والرياضيات، أما الشعوب النصرانية التي كانت تتكلم السريانية والقبطية في سوريا والعراق ومصر، والتي كانت تأثرت بالروح الهيلينية إلى حد بعيد، فقد خدمت هذه الحضارة العربية في حقل الفلسفة واللاهوت والعلوم الطبيعية، وكذلك البربر واليهود والإسبانيون والمستعربون تعاونوا مع العرب وتحت رعايتهم أنشأوا تلك المدنية العظيمة في الأندلس، وهذا يصدق أيضاً على صقلية وجنوب إيطاليا وأواسط وعلى جميع الأصقاع التي وقعت ضمن حيز الحياة العربية، وهكذا نرى أن الإقليمية والانكفاء الذاتي ليسا على شيء في التقليد العربي، ولو أن العرب كانوا على شيء من هذه لما نشأت حضارة عربية، ويجب أن نضيف إلى قائمة الخدمات الملموسة التي قدمها كل شعب من هذه الشعوب عناصر أخرى فعالة هي الحياة الاجتماعية عند كل مجتمع والأساليب التفكيرية والمبادئ الخلقية

والتباين في طبائعهم وأمزجتهم، مما أغنى الحياة العربية وجمّلها، واشتراك هذه الشعوب في كل نشاط ثقافي، وفي كل ناحية من نواحي الحياة العادية اليومية، حتى وإن كانوا مختلفين سياسياً، يظهر جلياً في طبيعة العلوم العربية، في الفلسفة و في العلوم الدينية وفي فن البناء وفي الفنون اليدوية، وفي كل مظهر من مظاهر الثقافة والحضارة وهنا أرى نفسي مجبراً أن أدحض صحة انتقادين يوجهان إلى الحضارة العربية ويستهدفان الانتقاص من مفاخر هذه الحضارة:

الانتقاد الأول: هو أن هذه الحضارة مزيج مزعج من عناصر مختلفة جمعت معاً دون أي ترتيب أو نظام، وإني آسف أن ليس لدي من الوقت متسع لرد هذا الادعاء بإسهاب، ولكن نكتفي بالقول إنه لو كان هذا الادعاء على شيء من الصواب، لاستحال أن تكون الحضارة العربية خلاقةً مبدعة، ولما كان بالإمكان لهذه الحضارة أن تؤدي خدمات، لا ينكرها إلا كل مكابر، في العلوم والفلسفة والفنون، خدمات يقر بفضلها علماء العرب أنفسهم، لو لم تكن ترتكز هذه الحضارة على أساس من الوحدة، في النظرية وفي المجهود وفي النتائج، فالحضارة العربية أشبه بنسيج تام الصنع حيكت خيوطه من ألوان مختلفة، فهي ليست مزيجاً بل مركباً فيها وحدة، والوحدة هي أسس القوة والإبداع في الحضارات كما هي في حياة الأفراد والجماعات.

أما **الانتقاد الثاني**: فموجه إلى العرب أنفسهم، يقولون ماهي الخدمات التي أداها العرب أنفسهم في إنشاء هذه الحضارة؟ أنها تكاد تكون من صنع شعوب أخرى، ورداً على هذا أقول أننا لو تغاضينا، ولو إلى برهة، عن خدمات العرب في إنشاء هذه الحضارة أعني الإحياء الروحي الذي هم بدأوا به، وعبقرية اللسان العربي، والمقدرة على التعبير عن مُختّر الاختبارات بلغة نثرية أو شعرية واضحة محبوكة،

وخدمات أفراد من العنصر العربي، وفي مختلف الصنائع والفنون أقول أننا لو تركنا هذا جانباً فإنني لا أتردد عن القول هنا، وفي جو "اليونيسكو"، إنه وإن يكن العرب لم يقدموا شيئاً واحداً لإنشاء هذه الحضارة العربية، فكفاهم فخراً أنهم هم الذين أحيوا الروح التي خلقت هذه الحضارة، وهم الذين هيأوا الظروف والأحوال الملاءمة لجمع هذه الشعوب معاً لتشترك في مجهود روحي فكري مشترك، فالعرب أنفسهم هم الذين شيدوا امبراطورية على أسس من التسامح وهم الذين فتحوا أبواب دمشق وقرطبة وبغداد وغيرها من المدن في وجه العلماء ومن جميع الأعراق والملل، وهم الذين استحضروا العلماء من أقاصي المعمورة وتنافسوا في اقتناء الكتب وإدخالها إلى بلدانهم، وهم الذين فاخروا برعاية الصنائع والفنون والأنفاق عليها بدون تمييز أو محاباة، هذا وحده في نظري خدمة أسمى مرتبة مما يستطيع امرؤ أن يسدي إن في حقل الفلسفة أو العلوم أو الفنون.

ويحسن بنا اليوم أن نقتدي في جهودنا الثقافية بهذه الروح النبيلة التي اتصف بها العرب، واسمحوا لي أن أضيف شيئاً آخر باقتضاب كلي إذ ليس لدينا من الوقت متسع للإسهاب في هذا الطرف وهو أن أولئك الذين يتهمون العرب سفهاً بالتعصب الذميم يجهلون حقيقة الروح العربية تمام الجهل، أو أدهى من ذلك أنهم يحاولون إخفاء تعصبهم باتهام غيرهم به.

في بدء محاضرتي قلت لكم إني لن أوقر اسماعكم بالإسهاب أو التفصيل الممل في ما يتعلق بخدمات الشعوب العربي وتقدماتها للحضارة، ولكني استميحكم عذراً إن عدت فذكرت لكم لماماً بعض ما أسدوه، وهدفي في ذلك **أولاً** أن ألفت أنظاركم إلى المرتبة التي يجب أن تتبوأها الحضارة العربية في تاريخ الفكر الإنساني، و**ثانياً** لا تخذ شاهداً من هذه الحضارة العربية نفسها على ما يمكن جنيه من الفوائد

الجمة إذا ما بعث في قلوب الناس أحياء روحي، ونظرة عالمية وإيمان بوحدانية الحق، ونزعة للتعاون الصادق.

ولنبدأ بالحياة العادية اليومية، ولنعتبر ما أسدته الحضارة العربية لرفع المستوى المادي في العالم في حقلي الزراعة والصناعة قبل أن استطاع الغرب أن يحدث ثورته الآلية، في اللغة شواهد عدة، فاعتبروا مثلاً للكلمات الأوروبية التي ترجع بأصلها إلى العربية، وإن لم يكن بعضها عربي الأصل، فإن للعرب الفضل بتعميمها ونشرها، فكلمة الأرز والقطن والسكر والنارنج والليمون والسمسم جميعها ترد إلى كلمات عربية أو معربة، فكلمة apricot دخلت أوروبا عن طريق إسبانيا من كلمة عربية البرقوق (وهذه دخلت العربية من اليونانية)، وغيرها كثير، وإن دلت هذه على شيء فعلى مدى أثر الزراعة العربية ونتاجها في العالم الغربي، ويصدق هذا على حقل الصناعة فكلمة muslin (نسبة إلى نسيج موصلي)، وdamask (نسيج ينسب إلى دمشق)، و atlas (نسيج ناعم أصلاً طيلسان)، وsofa (مأخوذة عن صفَّة)، وغيرها كثير من مختلف أنواع الأقمشة والأصبغة والعطور والمعادن والزجاج والحاجات المصنوعة من الجلد المدبوغ والأثاث وأدوات الزينة، وفي تجارتهم وأسفارهم الاستكشافية أوغل العرب وإخوانهم المسلمون من غير العرب في أقطار نائية فكانت قوافلهم تجتاز صحارى آسيا وإفريقيا جبالهما، وكانت تمر في شرقي أوروبا وجنوبيها الغربي حاملة البضائع من قطر إلى قطر آخر في العالم المعروف آنذاك.

وكانت سفنهم تمخر مياه شواطئ بحر الروم وشواطئ القارة الإفريقية والأقيانوس الهندي إلى موانئ الصين شرقاً ناقلة البضائع بين بلد وآخر، وكان في هذا التبادل

التجاري تبادل في الفكر والثقافة وكانت هذه الأسفار تزيد في المعلومات الجغرافية والبحرية في تلك الحقب والعثور على قطع من النقود العربية في أقطار بعيدة كالبلاد الاسكندنافية شاهد على مدى النشاط التجاري الذي قام به العرب.

وقد أبقى لنا العرب في الفنون الجميلة آثاراً خالدة، جوامع ومدارس وقصوراً وبنايات مختلفة منتشرة بين فارس والأندلس، وخلفوا لنا ذخيرة ثمينة في حقل الزخرف الدقيق وفي نواح أخرى من فن البناء الشرقي الذي ترك أثراً بعيداً في البناء الغربي كما يظهر في بقاء كلمات كهذه arabesque (نقوش عربية دقيقة)، وalcobe (القبة)، وogire (الأوج وهذه الكلمة فارسية الأصل)، وغيرها في اللغات الأوروبية، ويجب أن نضيف إلى هذه جميعها ما أظهروه من مقدرة فنية في الصنائع اليدوية، وفي المعادن والجلد، والعاج والزجاج، قال أحد أدباء الغرب: ((أنها لم تكن إرثاً بل كانت أشبه بمعين يستقي منه الفن الغربي سنة بعد أخرى[1])).

أما في حقل الموسيقى فقد أثبتت الدراسات التي قام بها كل من "ريبرا Ribera" و"فارمر farmer" أن خدمات العرب في حقل الموسيقى سواءً من الوجهة النظرية أو العلمية بعيدة الأثر، فإنه فضلاً عن الموسيقى الخاضعة للمقاييس التي يعتبرها "فارمر": أعظم إرث خلفه العرب لأوروبا[2]، لدينا كلمات تعود بأصلها إلى كلمات عربية أشباه lute (العود)، quitar (القيثارة)، rebec (الربابة) تشهد بما للعرب

[1] -A.H. Christie: The legacy of Islam, p151.

[2] -H.G. Farmer: The legacy of Islam,p372.

من فضل في هذا الحقل، ومعلوم أن الشعر الغنائي يتمشى والموسيقى جنباً إلى جنب، والبحوث الأخيرة في حقل الشعر أظهرت ما كان للموشح العربي من أثر في شعر جماعة التروبادور troubadours خاصةً، وفي تحرير الخيال الغربي من ربقة العصور المظلمة عامةً، وأخيراً ما كان له من أثرٍ في ازدهار الشعر الأوروبي الشعبي والموسيقى الشعبية في العصور المتوسطة.

وأخيراً نذكر بخدمات العرب في المعارف الإيجابية: في العلوم الطبيعية والفلسفة وعلوم الدين، وإن نظرة عجلى في الكتاب القيم لـ "جورج سارتون" بعنوان: **المدخل في تاريخ العلوم** تكفي لحملنا على إبداء إعجابنا بفضل هذه الخدمات وإحلالها المحل اللائق بها في تاريخ الفكر البشري، ويكفينا هنا أن نذكر بحقيقة لم تعد مجهولة وهي أن العرب حفظوا ونقلوا إلى الشعوب اللاتينية، التي كانت قد انقطعت صلاتها الفكرية بالعالم الإغريقي القديم، الجزء الأكبر من العلوم الطبيعية والفلسفية عند الإغريق، ولم يقتصر عملهم على حفظ ونقل العلوم الإغريقية وحسب بل أضافوا إليها ما اكتسبوه من معارف الشعوب الآرامية النصرانية والوثنية ومن الفرس ومن الهنود، وحسب العرب فضلاً أنهم درسوا هذه الأخيرة من للمعارف وشرحوها وعلقوا عليها (وقد عدت الشعوب اللاتينية الغربية أحد هؤلاء الشراح، ابن رشد، أعظم مفسر وشارح لأرسطو)، وأنهم أضافوا إلى جميع هذه المعارف والعلوم ما قاموا به أنفسهم من بحوث ودراسات، ففي حقل العلوم نجد أن بدء علم الجبر وعلم الكيمياء، يعود الفضل الأكبر فيه للعرب، وكلمتا (جبر) و (كيمياء) تشهدان على صحة هذا، والعرب هم الذين عرفوا الغرب إلى الأرقام الهندية التي أصبحت عندهم معروفة بالأرقام العربية إقراراً بفضلهم، وأرصادهم الفلكية أثر خالدٌ، يشهد بذلك أسماء نجوم عديدة دخلت اللغات

الغربية عن طريق العربية مثل (acrab) العقرب، (algedi)، الجدي، و(altair) الطائر، و (deneb) الذنب وغيرها كثير، ومصطلحات عدة مثل (zenith،nader،azimuth) وقد ظلت دراساتهم الطبية تشكل القسم الأعظم من منهاج الدراسة الطبية في جامعات العصور المتوسطة، فإن كتاب **القانون** لـ "ابن سينا" ظل كما يقول "أوسلر": ((توراة الطب إلى مدة أطول مما ظل أي كتاب طبي آخر))، كثير من المعلومات الطبية ومعلومات علمية أخرى انتقلت من العرب إلى الغرب اللاتيني وكان لها أثرها في مجموع المعارف الإيجابية التي هي المقياس الأول والأخير للتقدم البشري، والتي تشكل جوهر التاريخ الإنساني، أخيراً في حقلي التاريخ والاجتماع لدينا مقدمة ابن خلدون المشهورة التي ضمنها هذا العالم الكبير، الذي عاش في القرن الرابع عشر، ولأول مرة في التاريخ، مبادئ النقد التاريخي الصحيحة وطريقة تفهم التاريخ تفهماً صحيحاً، أما المرتبة التي يحتلها "ابن خلدون" في تاريخ الفكر فيقول فيها الأديب الاسباني "التمير altamir": ((كان يجب أن يكتب في القرن الرابع عشر عندما كان علم التاريخ في أوروبا بدائياً يتسكع وراء نظريات ابن خلدون في التاريخ، كتاباً كالمقدمة التي حاول فيها مؤلفها أن يحدد القضايا التاريخية ويعالجها بطريقة أصبحت فيما بعد الأسلوب الذي يتبعه مؤرخو العصر الحديث)).

وأثمن الخدمات العلمية الملموسة روح البحث والاعتماد على العقل، الميزتان اللتان تميز بهما الفكر العربي في طوره الإنشائي الخلاق واللتان كان لهما بعيد الأثر في بعث الفكر الغربي، لنستمع إلى (ادلارد adelard of bath)، الأديب الإنكليزي من أدباء القرن الثاني عشر تثقف على أيدي أدباء العرب في إسبانيا

وسوريا، يخاطب ابن أخ له درس في جامعات فرنسا: ((إنني، والعقل رائدي، تعلمت شيئاً من أساتذتي العرب بينما أنت تعلمت شيئاً آخر، فإن مظاهر السلطة الدينية بهرت عينيك وقيدت رأسك بعنان، وهل يمكن أن نسمي هذه السلطة بغير عنان؟ إن الله أعطى الناس العقل ليكون هاديين فيتميز الحق عن الباطل[1])).

هذه خدمات العرب للتقدم والرقي الإنساني، استعرضها باقتضاب، أما أولئك الذين يقرون بوجود شيء اسمه الحضارة العربية، فإنهم ينظرون إليها كما نظرت أنا في محاضرتي هذه، من جهة أثرها في العصور المتوسطة في الغرب وبالتالي في مجمل الثقافة الإنسانية، ولكنني أبعد أكثر من هذا فأقول حتى وإن لم يكن للحضارة العربية من أثر في ثقافة العصور المتوسطة والحديثة، فإن هذا لا ينتقص من قيمتها إذ ستبقى هذه الحضارة غنية بمعناها، إذ أنها تمثل جهود شعوب عديدة مختلفة الأعراق والديانات والذهنيات في تشوقهم إلى حياة فضلى وفي سعيهم لمعرفة كنه الكون والإنسان، تلك الفكرية الروحية التي سعوا إلى حلها هي القضايا نفسها التي تجابهها كل حضارة وكل ثقافة، وما قاموا به من مفاخر، وما ارتكبوه من هفوات، وما سموا به إلى العلاء، وما انحدروا به إلى الحضيض، في كل هذا تذكرة لمن يذكر، وعبرة لمن يعتبر، إذ في العرب تتجلى لنا الطبيعة الإنسانية بما تتصف به من صفات وبما يلابسها من نقائص، ومن هذه الناحية يمكن اعتبار الحضارة العربية شاهدٌ على وحدانية البشر ووحدانية الفكر الإنساني والروح الإنسانية هذه، هي حقيقة الحضارة العربية وهذا هو مغزاها، حاولت أن أستعرضها لديكم، وهي أمور على غاية من البساطة ولكن في الوقت

[1] -Bernard Lewis, British Contributions to Arabic Studies (London: British Council and Longmans, 1941). Stephen Spender, Poetry since 1939 (London: Longmans, 1949), p4.

ذاته على كير من الأهمية، ولكن بساطة هذه الحقائق يجب ألا تثير فينا الشك في صحتها، لأن الحقيقة، عند التحليل الأخير، بسيطة جداً، هذا إذا استطاع المرء أن ينظر إلى الحقيقة خلَلَ ما يكتنفها من سحب الجهل والفوضى حاولت أن أبين أن الإبداع الذي اتصفت به الحضارة العربية كان نتيجة دافع روحي، ونظرة عالمية شاملة، وإيمان راسخ بوحدانية الحق، وروح تعاونية سمحاء، وحاولت بطريقة سطحية أن أرى ثمرات هذا الإبداع ظهرت بشكل خدمات معينة للثقافة الإنسانية، وبشكل أعمال واختبارات فكرية روحية، أملاً بعملي هذا أن نستمد من دراستنا الحضارة العربية درساً يفيدنا نحن الذين نعني بأمر مدينتنا الحديثة ونسعى لإيجاد سبيل لإنقاذها من مصير محتم.

ولا بد لي الآن من كلمة أقولها في الحاضر والمتوقع، كان للحضارة العربية دور نمو وإبداع وفخار، ثم إنها كسائر الحضارات اعتراها الوهن فالتفكك، إذ بعد قرنين من الاتحاد والتوسع تجزأت الامبراطورية إلى دول مختلفة وإمارات مستقلة، وأخذت المصالح الفردية والدولية والعنصرية والإقليمية تنخر في عظم الأمة فقضى على الأهداف المشتركة والمثل العليا فلم ينقض وقت طويل حتى انقضت عليهم جحافل بربرية من الشرق، جحافل تعقب أخرى "جنكيزخان وهولاكو وتيمورلنك" وغيرهم موغلة في التقدم إلى قلب الدولة للقضاء على حياة الأمة واستئصال طابعها، وكان الغرب في هذه الأثناء يتمخض عن إحياء روحي جديد، وعن ثورة فكرية إصلاحية جديدة، بسبب التحرير الفكري وبسبب الرجوع إلى التراث الهيليني القديم، والفضل في هذا الإحياء والإصلاح يرجع إلى حد بعيد، إلى العرب أنفسهم، وكان من نتائج النجاح الذي حالف الشعوب العربية في تسلطها على قوى الطبيعة وتسخيرها، أن هذه الحضارة الغربية اتسعت فشملت على الأقل في نواحي حقل العلوم الطبيعية وفي السياسة والاقتصاد العالم بأسره تقريباً،

وبعد سبات كانت مدته 400 سنة أخذ الشرق العربي في القرن الأخير يستيقظ من جراء وقع هذه الحضارة الغربية وراح ينشد الاستقرار والتقدم في هذا العالم الحديث الزاخر.

وإني لن أتعرض في هذا المقام لذكر ما يجابه الوطن العربي الآن من مشاكل سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية، مع علمي أنها جميعها على غاية من الخطورة ليس للعرب وحدهم بل للمجتمع أجمع، ولكني أرغب في أن أحصر همي في مشكلة هي أعمق وأشمل أعني الحضارة بمعناها المطلق، إذ يبدو لي أن المشكلة الأساسية التي نجابهها اليوم والتي تشمل كل مشكلة أخرى هي: أي مكان تحتله حضارة عربية جديدة في عالم اليوم أو عالم الغد؟ أو قد نسأل سؤالاً يجب أن يسبق هذا وهو: هل يمكن قيام حضارة عربية في عالمنا الحديث؟.

الجواب سهل، إن إمكانية قيام حضارة عربية، أو أية حضارة أخرى، يرتبط ارتباطاً وثيقاً بحياة الحضارة أجمعها، فإن التقدم الآلي العظيم قد وحّد الأقاليم وجمع بين الشعوب، فمصيرها من الآن وصاعداً واحد، وسيكون هنالك إما عالم واحد أو لا يكون عالم وستكون هنالك حضارة واحدة أو لا تكون هنالك حضارة.

تقوم الحضارة على ما قامت عليه الحضارة العربية:

أولاً – **الدافع الروحي**: فإن هذا العالم الحديث الذي وصل إلى هذا الرقي الآلي والذي تسيطر عليه فلسفة القوة وليس فلسفة الحق والشرع، والذي تسود فيه المصالح الفردية لا المبادئ العامة، الشهوة والحرص لا المحبة والسخاء، أقول إن عالماً كهذا يسير إلى الهلاك حتماً، عالم كهذا لا يكون فيه للعرب نصيب ولا لأي شعب آخر عظم أم صغر.

ثانياً- **النظرة العالمية**: نحن بحاجة اليوم إلى نظرة عالمية جديدة في الفكر والتصرف، لا إلى نظرة عالمية سطحية خطرة تظهر بصورة اتحاد أو تحالف لا يتعدى المستوى المادي سواءً في السياسة أو الاقتصاد، نحن بحاجة إلى نظرة عالمية توحد الفكر والروح.

ثالثاً- **الإيمان الراسخ بوحدانية الحق**: على أن هذا مظهر آخر لوحدانية الله، ووحدانية الطبيعة والفكر.

رابعاً- **الروح التعاونية والسعي المشترك للتركيب والخلق**: ويحق لكم ان تسألوا هنا: هل من مكان لقيام ثقافة عربية، أو غير عربية، في حضارة هي حقاً عالمية؟ وجوابي على هذا نعم، لأنه إذا كانت الحضارة عالمية حقاً فإنها تكون في روحها على كثير من الرحابة وتستطيع أن تفتح لتسع الكثير من أي النواحي كان مصدرها، الحضارة العالمية تشجع كل أمة على المضي فيما اختطت تلك الأمة لنفسها وتفاخر في أنها تتسع لتبني كل حضارة وصهرها جميعاً لتجعل منها حضارة عالمية واحدة منسجمة، وعلى العكس من هذا كل حضارة لا تشتمل على القيم الإنسانية العالمية لا تستحق أن تسمى حضارة.

هذه هي الشروط الضرورية لقيام الحضارة، والحضارة العربية والعالمية أيضاً تقومان الآن بفضل توفر هذه الشروط، أعني عندما تستطيع النظرة الفردية الخاصة أن تعكس النظرة العالمية الشاملة.

العرب اليوم، كالشعوب الأخرى التي تسعى إلى تنظيم حياتها الجديدة تحت ضغط الحضارة الغربية، يجدون انفسهم أمام معضلة، فإنهم يخشون بعض نواحي الحضارة الغربية كروحها الاستعمارية وحبها للتوسع، ولكن مع هذا يدركون

الإدراك كله أنهم لا يستطيعون أن يتقدموا أو ان يساهموا في تقديم خدمات إلى الحضارة العالمية مالم يأخذوا بهذه المدينة.

فنراهم ينشدون خلاص أنفسهم عن طريق اعتناق الفلسفات القومية ذات الألوان المختلفة والنزعات المتباينة، وهذه القوميات، مهما اختلفت ألوانها، فهي في نشأتها، من جهة، رد فعل لأخطار خارجية، ومن جهة أخرى، حركة لتوحيد إيجابي داخلي، ولإحياء أمجاد الماضي ولتهيئة الأسباب للمساهمة مرة أخرى في بناء الحضارة العالمية، إن تطور هذه القوميات لتصبح قوميات رحبة لا ضيقة، سمحاء لا متشددة منكمشة، تقدمية لا رجعية، وبكلام آخر إذا أسفرت هذه القوميات عن كونها مظهراً من مظاهر روح الحضارة أو أنها تنكمش على ذاتها فتختنق لعدم وجود الهواء والنور، جميع هذه الأمور تتوقف على مدى تكيف العرب وتماشيهم مع الزمن، ويتوقف أيضاً على مدى أثر سياسة الشعوب الباقية وتصرفها في سير المدينة العصرية بصورة عامة، ولا نقصد بهذا الأثر السياسي والاقتصادي بل بالأحرى الأثر الخلقي والروحي، ولكن هذا لا يعني أننا ننتقص من قيمة الأثر الاقتصادي والسياسي سيما في هذا العالم الحديث الذي أصبحت فيه القوة حسنة التركيز والتنظيم، فإننا نكون مخادعين لأنفسنا إذا ظننا أننا نستطيع أن ننشئ تعاوناً ثقافياً مشتركاً إذا كنا في الوقت ذاته نتبع خطة اقتصادية سياسية تنم عن أنانية ضيقة، يقولون لنا إن السلم واحد لا يتجزأ وكذلك الأخلاق والروح، والطريقة الوحيدة الممكنة لتوطيد سلم واحد لا يتجزأ هي ولادة ثانية للأخلق والروح يكون لها الأثر الفعال في قراءاتنا السياسية، ونشاطنا الاقتصادي، وجهودنا الثقافية.

جاء في كتابات "الفيلسوف بلوطينس"، الذي كان ينتمي إلى المدرسة الأفلاطونية الجديدة والذي كان لكتاباته بعيد الأثر في العرب، الفقرة التالية: "كل شيء له

كيان، وكل شيء في حيز الحقيقة إنما يكون بفضل الاتحاد، إذ أي شيء يمكن أن يكون له وجود إن لم يكن وحده؟ بدون الاتحاد لا يمكن أن يكون للأشياء وجود، فالجيش بوحداته، والجوقة بأفرادها، والقطيع بمفرداته، ولا يمكن أن يكون لها كيان بدون الوحدة، وكذلك صحة الجسد فإنها تتوفر إذا كان الجسد منسجماً في وحدة تامة، ويحصل الجمال إذا كان لدينا وحدة تامة تتألف من الأجزاء، وتظهر فضائل النفس إذا توحدت واستحالت إلى وحدة منسجمة تامة".

وهذا ينطبق على العرب وعلى أية أمة أخرى، لا بل على البشرية بأجمعها، فإنه بدون اتحاد بين العرب، لن يكون هنالك حضارة عربية، وبدون اتحاد شعوب العالم لن يكون هنالك حضارة، وأنني آمل أن يتم الاتحاد بين الأفراد ليشمل الجماعات فيتوفر لدينا، كما يقول "بلوطينس"، الصحة والجمال والفضيلة، وعلينا جميعاً أن نسعى لهذه الغاية بكل ما أوتينا من نشاط وقوة، إذ في نظر التاريخ ليس هنالك من مهمة أخطر شأناً ولا أنبل قصداً.

الحق غاية الخلق

بهذه السعة الشاملة لنظام الحق في الإسلام يصبح لنا التساؤل عن ركن الغاية فيه أي من الغاية التي يستهدفها ويرنو إليها؟؟.

لا شك أن الحق هو المنهج الذي خلق الله به الخلق، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴿16﴾ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿17﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ الأنبياء/16-18.

وقوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ المؤمنون/115.

وقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴿38﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الدخان/38-39.

فالحق هو منهجية الكون بما تعطي من حكمة للإنسان في بناء حضارته، انطلاقاً من غائية الخلق واتجاهه نحو الحق دون أن نجعل من هذه الحتمية جبرية لاهوتية تصادر الإنسان والطبيعة.

والله تعالى لا يطالب من الإنسان (خليفته في الأرض) إلا أن يحكم سلوكيته الحضارية بما يأتي منسجماً مع حقيقة الخلق الكوني.

فكل صفة يتخذها الإنسان في سلوكه الحضاري بما يخالف لحقيقة الكونية يعتبرها الله (باطلاً) ليس جديراً بالبقاء، وليس هذا الباطل إلا الوجه المعاكس (للحق) المتجلي في الخلق الكوني ونهجه وحكمته: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴿38﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الدخان/38-39.

فالحق هو المعاني الإيجابية المتجسدة في الخلق الكوني من تسخير ورحمة ووحدة وسلام، اما الباطل فهو الأشكال السلوكية التي تحاول أن تبطل هذه المعاني وتزيفها وتعطيها معاني معاكسة، وبما أن هذه الأشكال (الباطلة) تقوم على مقومات (التسخير) نفسها مع تعمد نفيها أي تنطلق بالحق لتزيفه، فقد جعل الله معركة جلاء الحق (معركته) التي لا يتهاون فيها فالله لا يسلم الكون ليبعث فيه الإنسان بما يخالف حقيقة النهج الكوني، فيقذف الله الحق على الباطل فيدفعه فهو زاهق.

إن من سمات الهيمنة الإلهية الكونية في سياقها الآتي الذي يدفع بفعل الإنسان الحضاري، انها تأتي في الوقت نفسه كضمانة كونية لسلوك الإنسان الحضاري، أي توجيه الإنسان على طريق الوحدة والسلام، وليس على طريق الصراع والحرب.

فقدرة الله المطلقة الدافعة للإنسان ليست سلفاً مسلطاً على رقاب البشر إلا إذا اختار البشر أنفسهم الانحراف بما خلقه الله لهم وجعلهم مستخلفين فيه عن الحق، وليس هذا الحق سراً مغلقاً على الاتهام، بل هو حقيقة تتجلى في طبيعة

الخلق الكوني والعلاقة بين الظواهر المكنونة لتعطي المعنى الإنساني والمسخرة للإنسان علاقة التسخير والوحدة والسلام، فهل يقبل الله أن يأتي فعل الإنسان المستند على قدرته المطلقة فساداً في الأرض ودماراً؟ ﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ المؤمنون/**116**.

يعود الله بالإنسان وفي كل الآيات القرآنية ليساعده على استمداد نهجه الحضاري المتكافئ وتجربة الخلق الكوني، فيضرب الله للناس أمثالهم، ليسلكوا كما يقتضي الخلق الكوني ويتحدوا بحكمته ونتيجته، ويحمل الله القرآن من التشريعات والتوجيهات ما نفسره بأنه الإدراك الموضوعي المقابل للحركة الكونية ليستمد منها الإنسان سلوكه ومنهجيته، بحيث يحيا في سلام مع ربه ومع الكون ومع ذاته الاجتماعية ويطرح الله أمامه السبل التشريعية لذلك ولا يهمل شاردة ولا واردة.

كل ما أتى به القرآن من تشريع وتوجيه له دلالاته في النسيج الكوني وفي حكمته، ولا يبقى على الإنسان إلا أن يندمج بالوعي في هذا النسيج المحكم ليحقق ما يفوق تصورها في عالم الإبداع والفعل، لا على المستوى الموضعي فقط، ولكن على المستوى الكوني ليصبح بالفعل خليفة عن الله في الأرض، وهذا يتطلب مسيرة كونية عبر جمع للقرائتين في كل واحد، وبالمدى الذي يعطيه الله الوعي للإنسان.

بيد أن مسيرة الإنسان وتجربته الذاتية تأتي على نحو يتنافى غالباً مع حكمة النسيج الكوني ومنطلقه بالتناقض معه رغماً عن استهوائها على قاعدة الفعل الإلهي بما فيه من تسخير يتحرك الإنسان بالقلم ويغفل القراءة الأولى، ثم يجرفه القلم الموضعي وتشد أنفاسه إلى منجزات الحضارية فتتلبسه حالة من (الاتحاد بالطبيعة) وتتجلى هذه الحالة في انكفائه الذاتي على (قوة عمله) باعتبارها

القدرة الواعية المقابلة لحركة الطبيعة وظواهرها والفاعلة فيها بالتحليل والتنظيم: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى ﴿6﴾ أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾ العلق/6-7.

يتناسى الإنسان علاقة الله بالقلم الذي يسوقه إلى المعرفة المنهجية، ويتناسى الكون بظواهره الطبيعية ذات المعنى الإنساني، ويتناسى مقومات التسخير واستجابة الكون المعطاءة له، ويتناسى دفع الله له فعلياً وحضارياً من داخل الحركة الموضوعية وخارجها ويتناسى خلقه المتكافئ مع مقومات الوجود باعتباره هو نفسه ظاهرة خلقية ذات معنى، ويتناسى أن فعله قائم على قدرة الهيئة محفزة ومهيأة، يتناسى كل ذلك ويركن إلى (قوة عمله) ويضعها في مقابل الكون.

تلبس الإنسان بحالة القوة الذاتية في الفعل سرعان ما تنسج حول الإنسان شعوراً بمطلقه الذاتي، ثم ينعكس هذ المطلق الذاتي على علاقته بالطبيعة والمجتمع، فيحل الصراع بديلاً عن السلام، والانقسام بديلاً عن الوحدة، ولا يصبح ثمة معنى للوحدة والسلام إلا في حدود المنفعة الوضعية لحركة الإنسان الذاتي.... القبيلة والطبقة وهذه الأشكال المختلفة التي تتكاثر على مستوى الانقسام والصراع والأخلاق، فكل تركيب يفقد معناه الطبقي وروحه الإيجابية فيتحول إلى المعنى الذي يعطيه له الإنسان من خلال شعوره بالمطلق الذاتي.

هنا يغيب الله عن الوعي وتغيب حكمته في النسيج الكوني، فماذا تكون النتائج الحضارية، ماذا تكون نتيجة إهمال هذه المعاني؟.

يشير القرآن الكريم إلى ضرورة التعامل مع مختلف الظواهر بمنطق الكشف عن السببية موضوعياً وعلمياً لأنها تؤدي إلى اكتشاف خصائص الأشياء وعلاقاتها وقواها المحركة وناظمها حتى يتفاعل الإنسان مع قوة التسخير، ولهذا ترد الآيات:

﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ يس/**40**.

كذلك: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا﴾ **الإسراء/12**.

غير أن قوانين التسخير العلمية الطبيعية لا يمكن التحول بها إلى فلسفة وضعية مادية، لأنها تصطدم حين تحولها إلى فلسفة شاملة بحيثيات التركيب الكوني.

فالفلسفة الجبرية المادية مرفوضة بمنطق الفلسفة الكونية القرآنية، ولكن دون أن يلغي القرآن ضرورات التعقل الموضوعي والعلمي لحركة لظواهر وخصائصها، إنه فقط يضع هذا التعقل (الموضوعي) في إطار (الكونية)، وليس الجبرية المادية الوضعية.

هنا تفضي الفلسفة الكونية لمنطق (الغاية) خلافاً للفلسفات الوضعية التي لا تكتشف الغاية في حركة التشيؤ، وإنما تكتفي بمراقبة تفاعلاتها واكتشاف قوانين صيرورتها، ثم تتراوح في فلسفتها الوضعية بين القول بالجبرية أو الحتمية أو القول بالنسبية والاحتمالية المفتوحة، ولكنها لا تنتهي إلى الغاية ومنطق التسخير الإلهي، ومن هنا اتخذت الفلسفات الوضعية المتعلقة بالإنسان منحى التعلق بالذات وفق معايير وجودية (عبثية)، واتخذت الفلسفات المتعلقة بالطبيعة منحى مادياً جبرياً أو احتمالياً.

في المقابل تطرح الفلسفة الكونية مفهوم الغاية: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴿38﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ **الدخان/38-39**.

فالبنائية الكونية كلها (السماوات والأرض) مركبة في تفاعلاتها الكونية وما تؤدي إليه من نتائج على غاية تتجه إليها، والإنسان مسؤول عن إدراك هذه الغاية: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ الدخان/40.

فالخلق ليس (ملهاة عبثية) لينتهي إلى متاهة وجودية أو جبرية مادية: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴿16﴾ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿17﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿18﴾ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ الأنبياء/16-19.

فغاية الخلق بموجب هذه الآيات إنقاذ (الحق) عبر منطق التدافع الجدلي بين قوى الحق وقوى الباطل وصولاً إلى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿8﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ الصف/8-9.

فهنا (جدلية تدافع) في إطار صيرورة كونية تتجه إلى غاية، خلافاً للمنطق الوضعي الذي ينظر فقط إلى محركات الصيرورة دون غاياتها: ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ الأعراف/51، فهؤلاء مصيرهم لدى تحقق الغاية الكونية النهائية في الآخرة، وهي الحياة (العليا)، وليست (الدنيا) أن يسدل عليهم ستار النسيان كما نسوا الارتباط بغائية الخلق في حياتهم الدنيا: ﴿فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ تتمة الآية في الأعراف/51.

قد ضمن الله الغاية في مقومات الخلق والتسخير ليكتشفها الإنسان، وجعل التدافع جدلياً بين الحق والباطل، ليرتقي الإنسان عبر الصراع مع الباطل تجاه الحق، فلم يستلب الله الإنسان قط بمنطق الجبرية وجعله سيد مصيره ضمن هذا التدافع الجدلي، أما أن تتحقق العبودية لله بأن يقهر الله الناس عليها فإنه غني عن ذلك:

﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ **الأنبياء/19**،

فعبادة الإنسان هي من مقتضيات المجرى الإنساني باتجاه الغاية عبر التدافع وليس من مقتضيات الحاجة الإلهية: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾**الزمر/7**.

حين نضع المعايير الفلسفية للهدى ودين الحق ضمن مجرى الغاية في مقابل المعايير الفلسفية النقيضة، لنحدد إيجابيات الغاية بتحديد سلبيات النقيض، نجد أن النقيض الوضعي يتجه بالإنسان ليمارس الاتحاد بالطبيعة عبر الغرائز والحواس ودوافع اللذة والمنفعة، والاستعلاء بالولد (العنصرية) والاستعلاء بالثروة (الطبقية)، ثم تسود منهجية الصراع عبر تعزيز الفرية وكافة مظاهر السلوك التاريخي والاجتماعي والسياسي والفكري والاقتصادي المنحرف.

ذلك اتحاد بالطبيعة يورث الإباحة والمتاهة الوجودية العبثية والشقاء الإنساني، وتمحور حول الذات بما يورث الصراع، وكما قالت الملائكة: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ

لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ البقرة/30.

ما علمه الله وعلمنا إياه أن مسيرة الإنسانية تتجه من الاتحاد بالطبيعة إلى التعالي على النوازع الحسية البدائية، فلا يفسد في الأرض بمنطق الإباحة ولا يسفك الدماء بمنطق التناقض والصراع، وهذا يتطلب (السمو النفسي) على الحواس الغريزية، ليمارس الإنسان اتحاداً آخر غير الاتحاد بالطبيعة، وهو الاتحاد بالقيم المتسامية والنقيضة للقيم الوضعية، فلا يزني وهو يشتهي، ولا أنانية، ويسعى في عمل الخير محققاً غايات (الفضيلة الإنسانية)، وهذا القول صحيح جداً، فالإنسان يمكن أن يرقى إلى أعلى قمم الفضيلة دون دين ودون شعائر ودون طقوس، ولكنه يحقق لنفسه في هذه الحالة(نصف المطلوب) أي السلوك بموجب (دين الحق) ولو لم يتدين، ولكنه سيفتقر إلى النصف الثاني وهو (الهدى).

فالعبادات إذ تحقق التعالي الإنساني نحو الفضيلة من ناحية، كما يحققه إنسان آخر دون عبادات، إلا أنها تحقق بذات الوقت جانباً آخر، وهو التواصل مع البعد الغيبي والانفتاح عليه للتلقي منه حيث يكون (التوجه إلى الله) بوصفه (هادياً أو معلماً وكريماً ورحيماً) وبكل أسمائه الحسنى، لذلك جمع الله بين (الهدى) ودين (الحق) في سياق واحد: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ الفتح/28.

فالتدين الإنساني يقربك من الحق، ولكنه لا يفسح لك في مجال الهدى الكوني حيث تشحذ بصيرتك، ويستنير قلبك، وتصقل لا محدوديتك الإنسانية التي جبلك الله عليها، فالتدين الإنساني باتجاه الفضيلة يرتقي بنفسيتك، ولكنه لا يفتح

أمامك آفاق الرؤية الكونية المشمولة بأبعادها الغيبية، فتدرك ما لا تبصره وكأنك تبصره.

هذا الإنسان المؤمن المتسامي هو مطلب الهدى ودين الحق، وبينه وبين المتسامين إلى الفضيلة بالتدين الإنساني قاسم مشترك، أي أولئك الذين يأمرون بالقسط بين الناس، ولكن المؤمن المتسامي يرقى على أولئك بالهدى من ربه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ **آل عمران/21**.

ثم أطّر الله لهذا البديل الحضاري عن الوضعية والإخلاد في الأرض بجملة من النظم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية بحيث تنتهي في مقاصدها إلى ما يحقق قدرات التسامي لدى الإنسان، فلا يقهر اقتصادياً، فكانت "الزكاة تفتيت الإرث وويل للمطففين، وكذلك ويل الذين هم عن صلاتهم ساهون، وغير ذلك كبير" بهدف تفتيت التركز الطبقي.

وكذلك لا يقهر الإنسان سياسياً ليس بالدعوى إلى الشورى فقط، ولكن بأن يكون ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ **النساء/59**.

أما طاعة الرسول ﷺ فقد اقترنت بطاعة الله وليس بمشروعية (منكم) من بعد الرسول ﷺ، ولهذا تكتمل الآية: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ **النساء/59**.

ولهذا جعلت مشورتنا غير ملزمة للرسول خلاف إلزامها لأولي الأمر منا: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ **الأحزاب/36**.

ولهذا كانت الشورى غير ملزمة بالنسبة للرسول ﷺ فقط: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ آل عمران/**159**.

فالنظام الإسلامي الحضاري البديل بفلسفته الكونية يحول دون استلاب الإنسان سياسياً أو اقتصادياً أو فكرياً حين يحاط في التطبيق بكل هذه الأبعاد فيرتقي بالإنسان فوق التنازع الطبقي أو العرقي أو السياسي، فلا يقنن الصراع بمنطق الديمقراطية والحزبية مع الإبقاء على جذور الصراع الاقتصادية والاجتماعية، ولكنه يلغي الصراع بمبدأ (السلم) ويحقق التكافؤ بين الناس: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿204﴾ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴿205﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿206﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿207﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ البقرة/**204**-**208**.

إن تجربة البديل الحضاري الكوني المرتبط بغائية الخلق، وبمنهجية الهدى ودين الحق، صعبة للغاية فيما إذا تطلبت التطبيق المثالي، وهذا ما عاناه آدم رغم إن الله قد منحه (قوة الروح) التي تعالى بها على معطيات الحواس والطبيعة، فكان لا يشعر حتى بالجوع والظمأ، أو البرد والحر: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ طه/**115**.

ثم عهد الله بالأمر إلى بني إسرائيل، وعلى مستوى أدنى من قدرات آدم الروح، وسخر لهم الطبيعة بخارق المعجزات، من شق البحر وإلى انبجاس الماء من الصخر.

إلى إنزال مائدة من السماء، وكذلك لم يجد لهم عزماً، فماثل لهم بين خارق العطاء (المعجزات) وخارق العقاب (شرعة الإصر والأغلال).

ثم عهد الله بالأمر إلى المسلمين، فابتعث خاتم الرسل والنبيين، وبالحد (الأدنى)، فحجب خارق العطاء، وتبعاً لذلك خارق العقاب، فكانت (شرعة التخفيف والرحمة) و (حاكمية الكتاب) و (عالمية الخطاب).

فالتجربة بكافة أبعادها تتطلب الأخذ بالضوابط الكونية في التفكير والسلوك، ليتماثل الخلق مع غائية الحق، حتى يخرج الإنسان عن متاهات العبثية في وجوده، ويتهيأ لسرمديته ولا محدوديته الكونية، أما دون ذلك فلا تكون سوى الحروب والصراعات وكل ما يتناقض مع (السلم).

غير أن الإنسان لا يستطيع أن يدرك ذلك إلا إذا عاش المآزق والأزمات عبر تشبثه بذاتيته وأنظمته الوضعية فتهار وبه تنهار، فإذا كنا نعيش اليوم انهيارات الفلسفة الوضعية المادية الجبرية بسقوط الماركسية، فإننا سنعيش عن قريب انهيارات الفردية الليبرالية البراجماتية، ثم يتجه الإنسان حتماً (ولو كره الكافرون، ولو كره المشركون) ولكنه اتجه نحو الهدى ودين الحق بلا ماضوية، وبلا لاهوتية تستلب الإنسان أو الطبيعة وبمنطق (تدافع).

(راجع، التأسيس القرآني للمجتمع المعاصر، ندوة تجديد الفكر الإسلامي نحو مشروع حضاري إسلامي معاصر، المركز الإسلامي، مالطا 21 نوفمبر/تشرين

الثاني1988) وكذلك (الخصائص الفكرية للحضارة العالمية الراهنة، الجزء الأول، من كتاب العالمية الإسلامية الثانية، جدلية الغيب والإنسان والطبيعة، دار المسيرة، بيروت1399هـ/1979م).

وكذلك: (الدين والرابطة الحضارية ندوة الدين والتدافع الحضاري، المركز الإسلامي، مالطا15-20 نوفمبر/تشرين الثاني1988).

في كافة الأحكام الإلهية التي يوردها الله مقترنة بالمشيئة إنما يحيلها إلى منعكسات الواقع واختيارات الإنسان، خلافاً لما يرد مقترناً بالإرادة الإلهية أو الأمر الإلهي، ثم تصاغ العلاقة بين المشيئة والإرادة والأمر صياغة توسطية جدلية، وذلك حتى لا يفسر القانون الطبيعي والفعل البشري بما يلغي الوجود الإلهي نفسه، فالله يعطي للإنسان قدرات الفعل والاختيار بمنطق الخلق، ويعطي للطبيعة قدرات القانون الكامن فيها، خصائصاً وصيرورة، وذلك هو جانب (المشيئة) الإلهية فيما يختص بالله فالمشيئة الإلهية ترتبط بقوانين (التشيؤ) في الإنسان وفي الطبيعة، فحين يكفر الإنسان فتلك مشيئة الله تبعاً لقوانين التشيؤ التي تعطي الإنسان متاحات الخيار، ولكن كفر الإنسان ليس من (إرادة) الله وليس من أمره: ﴿اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿106﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ **الأنعام/106-107**، وكذلك: ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ **الأنعام/35**.

تلك هي مشيئة الله التي ترتبط بضوابط الخلق وجدلية الإنسان وجدلية الطبيعة، أي المشيئة كما أرادها، فقد أرادها الله على هذا النحو، فلا يستلب الإنسان ولا يستلب الطبيعة، فإرادته حددت مشيئته: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ البقرة/**253**.

فالإرادة الإلهية وهي أعلى من المشيئة اقتضت أن تأتي المشيئة على هذا النحو فلا يحدث أي استلاب إلهي بالمنطق اللاهوتي الغيبي لا للإنسان ولا للطبيعة.

كذلك فإن تحقق المشيئة كما اقتضها الإرادة الإلهية لا تكون بمنطق الاستلاب الذي يفهمه البعض بجبرية (كن فيكون)، وإنما تمر بتوسطات جدلية، تبدأ (بالأمر= الكلمة= القول) ثم يفرغ الأمر في إرادة، ثم تفرغ الإرادة في مشيئة: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ يس/**82**.

فبقوة ملكوته قضى الله أن تأتي المشيئة على هذا النحو وهو منزه أن يكون المصدر الفاعل لما اختاره البشر من معصية أو كفر، ولهذا يأتي التنزيه ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ يس/**83**.

غير أن المشيئة الإلهية حين تترك لتكون وقفاً على جدلية الطبيعة وجدلية الإنسان حيث يرتد الإنسان إلى ذاته الموضعية ونوازعه (شجرة الخلد وملك لا يبلى)، ويتماهى مع قوانين الطبيعة باشتقاق فلسفة وضعية لها، فإن الغية من الخلق ارتباطاً بالحق الذي خلق الله به السموات والأرض تؤول إلى الباطل.

هنا لا يتخذ الله سبحانه موقفاً سلبياً، إذ تتحرك الإرادة من فوق عالم المشيئة لتأتي بالنبوات والرسالات لتعطي الحق كمالاته، وبذات المستوى تعطي الباطل أيضً كمالاته، وتضع الطرفين في حد الاستقطاب: ﴿كُلاًّ نُّمِدُّ هَـؤُلاء وَهَـؤُلاء مِنْ عَطَاء رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاء رَبِّكَ مَحْظُوراً﴾ **الإسراء/20**، وكذلك: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا﴾ **مريم/75**.

وكذلك: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ الأنعام/125، وكذلك ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً﴾ **الإسراء/16**.

فهنا فسوق وفق متاحات عالم المشيئة ولا رجعة عنه، فيعطيه الله نهاياته وكمالاته، بمنطق الآية (كلا نمد هؤلاء وهؤلاء)، فتسود (الطبقة المترفة) التي تنخر بسوسها بنية المجتمع كله، فليست إرادة الله هي التي اقتضت فساد القرية كذريعة لإهلاكها، ولكنها قرية اختارت هذا الطريق وفق متاحات حريتها واختيارها[1].

[1]- يراجع في ذلك المفكر محمد أبو القاسم حاج حمد: ابستمولوجيا المعرفة الكونية- إسلامية المعرفة والمنهج، دار الهادي، بيروت، ط1، 2004، ص285 وما بعدها.

الصراع العربي الإسرائيلي
على ضوء منهج الهدى ودين الحق

نحن الآن بالتمام في حال وقوع وليس في خضوع للواقع بمنطق الحكمة وما تفرضه السياسة الدولية، بل إن حالتنا تحتل السقوط والانهيار ولعمري أي أمة في العالم تقبل معادلة الأرض مقابل السلام؟ إلا في حال الهزيمة التامة أو من المفروض بنا أن نأكل الحصاد ونستقي ترب الأرض ونحيا على ثلث معي: ثلث للطعام وثلث للشراب وثلث للراحة، ولا نأكل نجوع وإذا أكلنا لا نشبع.

إن الله تعالى جعل للعرب ما بين المحيط والخليج، ومد سيطرتهم وديارهم إلى منافذ العالم الأوسط، من جبل طارق إلى قناة السويس وإلى ممر الدردنيل وإلى باب المندب وإلى الخليج العربي.

ولقد أودعت هذه الأرض الطاقة المحركة للاقتصاد العالمي كله، ومد لهم ورزقهم من البنين بما يفوق الثلاثمائة مليون، وجعل لهم من الموروث الحضاري الحي ما يكفي لبزوغ الحياة الرحبة المعطاءة.

والذي كتب رسالة ضعف الحال للّه فيشكو عجز، والأمة وعدم التدخل الإلهي لم يبصر كل هذا، ولم يفهم منطق التدافع وغاياته الإلهية حتى يظهر الحق الذي خلق به الخلق على الباطل ويزهقه[1].

نحن في حال تصام وتعاجز ولا يزيد الأصم صماً إلا الذي يتصام، كما لا يفوق عجزاً إلا الذي يتعاجز.

لقد قضا اللّه قضاءه بتدافعنا مع إسرائيل وبشرعة السيف مجدداً أنه لا تجتمع في الأمة الوسط (العربية الإسلامية)، مركز بيان، والإسرائيليون بعكس ذلك لا يحدهم حدود أو مطمع وكان الأجدر وهو حالياً الأجدر أن يتعايشوا مع كينونة الأمة الوسط وخصائصها ومع أهل الأرض المقدسة (الشعب العربي الفلسطيني)، قال تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا﴾ **الإسراء/7**.

لكن الإسرائيليين لم يحسنوا لأنفسهم فاتخذوا من استئصال الغير كما يستقلون في الأرض المقدسة مدخلاً لزرع كيانهم، كما اتخذوا من احتلال أراضي الغير ضمن الأمة الوسط (العربية) مدخلاً لفرض إرادتهم وعنوهم بما فعلو، في لبنان وسوريا،

[1]- محمد أبو القاسم حاج حمد: ابستمولوجية المعرفة الكونية، ص 351.

وكان الرد هو النضال ضد الاستئصال الإسرائيلي، فشرعة السيف فرضت علينا مجدداً بعد أربعة عشر قرناً وبمنطق التدافع كما تقرر بإرادة إلهية من مقدمة سورة الإسراء، وبما يتحمل الإسرائيليون المبادأة والمسؤولية عن ذلك ودون أن نحل ذلك بآيات الحوار والتعارف والجدال الحسن في استيعاب مختلف الأنساق الحضارية والتفاعل معها واستيعاب مختلف المناهج المعرفية بمنطق نصادق من يصادقنا ونعادي من يعادينا.

نعود فنؤكد أننا لم نسجل أسس هذا الصراع وفلسفته من الناحية الوضعية والقومية تلك الأسس التي قتلت حثاً وحرصاً وتحليلاً والتي أوضحت هنا أن الصهيوني المعتدي الغادر، اعتدى على الضمير والمعنى الإنساني وعلى القيمة الإنسانية، وذلك عندما اعتدى على الشعب العربي الفلسطيني الأمن وأخرجه من دياره ووطنه لا نعود فنقول إنه إلى جانب المعنى القومي والوطني والإنساني، هناك اعتداء على الإسلام في طبيعته الذاتية وماهيته ورسالته كما سبق إجلاؤها.

فالحق بسننه وشموله في الإسلام يعني الله في ذاته والإسرائيليون باعتدائهم على شعبنا الفلسطيني يكونون قد اعتدوا على الله في ذاته بصفته قيمة الحق.

والإسرائيليون اعتدوا بالمعنى الذي شرحناه على الكون والوجود وعلى هندسة الحياة ونسيجها في ذاتهم، ولم يكتفوا بذلك بل تم الاعتداء على فلسفة حياتنا، أي على إرسال رسولنا بالحق وإنزال كتابنا بالحق وقتل النفس التي حرمها الله، لقد توسعنا في تركز ثنايا وتضاعيف وتضاريس الحق، فإذا الاعتداء الإسرائيلي على وطننا الفلسطيني هو اعتداء على فكرى الحق الإسلامية بشمولها، فكيف إذن يصح الكلام عن الدخول بالسلم مع إسرائيل، وكيف لنا أن ندخل البيوت من غير أبوابها، كما فعلت بعض الدول العربية.

لقد كانت بشرى سورة الإسراء واضحة ومكتملة بالنصر إذا ما أخذنا بحق الله، أي إذا امتثلنا لآياته وفق المعنى الذي أظهرنا، وما علينا إلا السير بهذا الطريق: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ محمد/7.

وحقيقة الأمر في اختراق إسرائيل للأمة الوسط، (تتجدد) شرعة السيف، ويبرز ويتقصد شيء وحيد وواحد ه و الدفاع عن الكرامة ورد الشيء المغتصب.

لقد قضى الله سبحانه بالتدافع لأن الناس لا يستجيبون عفوياً لدعاوى الإصلاح أو النبوات، فالإنسان أقرب لأن يستكين إلى دواعي (الغريزة) في عالم (المشيئة) وغلى ممارسة الفردية والنفعية واستشارة مختلف أشكال الصراع والتنابذ، وهذا ما اختاره العدو الصهيوني جلياً معنا.

أمام هذه السلبيات البشرية كان لا بد من (تدخل إلهي) لتشكيل (قاعدة دينية بشرية وجغرافية) ولكن كيف كان ذلك؟؟.

هذا ما حدث في حالتين (فقط) الحالة الإسرائيلية، ثم الحالة الأمية العربية، انتهت الحالة الإسرائيلية سابقاً إلى (التوطن) في (الأرض لمقدسة) و (الحاكمية الإلهية) واسنادها بالخوارق (الحسية) وفرض شرعة (الإصر والأغلال) في مقابل خوارق الإسناد المعجز، واتخذت التوراة صفة (العهد والميثاق) وطرح الخطاب (حصرياً) لأسباط بني إسرائيل.

وامتدت إلى (حاكمية الاستخلاف) التي استندت بدورها إلى (التسخير الإلهي) للكائنات المرئية كالطير والنحل وسواهما وإلى غير المرئية كالجن، ومع تسخير الجبال والرياح والحديد بمنطق (حسي) أيضاً، فالمستخلف ينوب عن الذي استخلفه في (بعض) قدراته وصلاحياته ومع تدخل الله سبحانه بالإرشاد.

أما الحالة (الأمية العربية) فقد انتهت إلى تكوين (الأمة الوسط) و(الخروج) إلى ما بين البيت الحرام (أم القرى وما حولها) والبيت المقدس وما حوله، وأسندت بالتدخل الإلهي (الغيبي النصرة لمحمد) وطرح (الخطاب العالمي) و (شرعة التخفيف والرحمة) و (حاكمية الكتاب) مع (نسخ) الخطاب الحصري وشرعة الأصر والأغلال والحاكميتين الإلهية والاستخلاف.

الاصطفاء والقاعدة الدينية:

لتنفيذ شرعة العهد والميثاق فرض على بني إسرائيل الخضوع للتوجيهات الإلهية عبر النبوات المتتابعة التي لا ينقطع تسلسلها: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ **البقرة/87**.

وكذلك: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ **المائدة/46**.

وفرض عليهم (التسامي) في التطبيق، ومن هنا جاءت صفات (الاصطفاء والتفضيل) ارتباطاً لازماً بالمهمة الدينية: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ **البقرة/40**.

وقد حدد الله هذا التسامي المرتبط بالتفضيل بقوله سبحانه: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ

مُعْرِضُونَ ﴿83﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿84﴾ ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ **البقرة/83-85.**

ولكنهم نكصوا على أعقابهم كما توضح لنا الآيات السابقة بل مضوا إلى (عبادة العجل) وخرق (حرمة السبت)، (الرجوع إلى الآيات في البقرة من 40 وإلى 103).

فالاصطفاء والتفضيل ليس (مطلقاً) لذات العرق الإسرائيلي بمفهوم (شعب الله المختار)، وإنما هو تفضيل واصطفاء (مقيد) بمهمة إلهية وميثاق وعهد، ولهذا حين ادعى الاسرائيليون في مواجهتهم للسيد المسيح بأنهم (أبناء ابراهيم)، قال لهم (إن الله قادر على أن يخلق من الحجارة أبناء لإبراهيم).

وحتى إبراهيم الخليل حين اتخذه الله (إماماً للناس) وطلب استمرارية الإمامة في عقبه من بعده حصر الله الاستمرارية في العادلين الصالحين منهم فقط: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ **البقرة/124.**

ويكفي أن غضب الله سبحانه قد حل عليهم إلى مسخ بعضهم قردة وخنازير بأقصى متاحات شرعة الأصر والأغلال: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾**البقرة/65.**

وكذلك: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ المائدة/60.

وكذلك: ﴿ فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ الأعراف/166.

فالتفضيل ليس لذات العرق وإلا كانت حجة إبليس على آدم منطقية ومبررة: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ الأعراف/12.

وكذلك: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ ص/76.

وكذلك: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ الإسراء/61.

فالتمايز العنصري مدان ومرفوض قرآنياً، ولهذا قيد الاصطفاء والتفضيل بشروط التسامي والعهد والميثاق وليس لذات الإسرائيليين.

وبنفس المنطق والمنهج تم (تقديس) الأرض، أي من حيث تعلقها (بالحاكمية الإلهية) و (العهد) وليس لذاتها.

وينسحب نفس المنطق والمنهج الإلهي على (الأميين العرب) الذين وصفهم الله بأنهم: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ﴾ آل عمران/110، ثم ذكر (سلبياتهم التكوينية) الممتدة كصحرائهم

القاحلة وأقلها: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ التوبة/97.

ثم لجأ الله سبحانه إلى تهديدهم بتحويل (المسؤولية عن الذكر) إلى غيرهم: ﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ محمد/38.

وكذلك: ﴿إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ التوبة/39.

فاصطفاء لأميين العرب بمفهوم (خير أمة) ليس أيضاً لذاتهم ولكن لارتباطهم بالقرآن والتزامهم به عقيدة وسلوكاً.

وكما (قدست) أرض العهد والميثاق لتعلقها بالله (حرمت) مكة لتعلقها بالله أيضاً، والتحريم أعلى درجة من التقديس، لأن التحريم يرتبط (بعالم الأمر الإلهي المنزه) في حين يرتبط التقديس بعالم (الإرادة الإلهية النسبية)، ولذا كانت النصرة الإلهية لمحمد (غيبية) من عالم الأمر، في حين كانت النصرة الإلهية لموسى (حسية) من عالم الإرادة، وهذا قول يتعذر إثباته بالمنطق (ألموضوعي والعقلاني) وتكفي فيه (القرائن الدالة)، وهنا الفرق بين المنهج القرآني الكوفي في الفكر والفلسفة والنهج العقلاني والموضوعي المجرد.

فالقرآن وحده هو الذي يعطي هذه الدلالات حول علام الأمر وعالم الإرادة المشيئة تبعاً لخصائص النبوات. (محمد/الأمر الغيبي)/(موسى الإرادي)/(إبراهيم/المشيئة المقننة[1]).

فالخيرة الأمية العربية والاصطفاء الإسرائيلي، وكذلك تحريم مكة وتقديس المسجد الأقصى، ليس لذاتهما وإنما لتعلقهما بالله، أمراً وإرادة.

القاعدتين والدافع:

باصطفاء الله للقاعدتين البشريتين، و(تدخله)، حسياً ثم غيبياً لتكوينهما رغماً عن سلبيات هؤلاء وأولئك، تجاوز الله البشرية حالة لإخلاد إلى الأرض والركون إلى الذات الفرية والتمركز الغريزي حولها.

فكل دعوة في العالم تحتاج إلى (قاعدة بشرية) و (مرتكز جغرافي) بما في ذلك الماركسية اللينينية التي اعتمدت على (البلاشفة) وتحالف (العمال والفلاحين) و (روسيا) وبما في ذلك الكنيسة التي اعتمدت على قاعدة (الملكية المقدسة) و (نبلاء الإقطاع) حتى أفرزت معاهدة (وستفاليا) في عام 1948 وضعاً جديداً (للدولة الوطنية) ثم تحالفت (البرجوازية) مع (الحرفيين) لإطلاق الثورة عام 1795/1789م لاستبدال اللاهوت (بالعلمانية) والملكية المقدسة (بالجمهورية) والقنانة الإقطاعية (بالمواطنية) فلتطبيق أي منهج (نظرية) يلزم (قاعدة بشرية وجغرافية) إلا أصبحت النظريات أو الأديان كلمات سابحة في الفضاء، سواء أكانت دينية أم وضعية.

1- محمد أبو القاسم حاج حمد: إبستمولوجية المعرفة الكونية.

غير أن تأسيس القاعدة الدينية بحكم ارتباطها باللّه سبحانه فإنها بشرياً وكذلك مداها الجغرافي يرتبطان بمفاهيم (الاصطفاء) و (التفضيل) و (التقديس) و (التحريم) بالكيفية (الشرطية) التي أوضحناها وليس بالمطلق كالمفاهيم (النازية) و (الفاشية) و (ألعنصرية الصهيونية).

لماذا التدافع:

يعلمنا اللّه سبحانه من خلال القرآن، ان القاعدة البشرية سرعان ما يمضي عليها العهد (فتتزيف) حتى ما أخذته عن ربها وهذا قانون عام ينطبق حتى على الذين يأخذون من الفكر الثوري والإصلاحي، فالجذوة (المثالية) تحنو، ثم سرعان ما يسيطر (الواقع) بأيديولوجيته وقيمه على المثال.
وتحل شرائع الإصر والأغلال لدى المسلمين بديلاً عن شرائع التخفيف والرحمة وما بعد ذلك، وتتحول اليهودية إلى حركة عنصرية صهيونية (ترفض التعايش) في فلسطين حتى بمنطق المواطنة والديمقراطية.

وتتحول الماركسية من حركة اشتراكية إلى دولة (تستلب) العمال والفلاحين والشعب مما يدفع بالبروستراكيا، وتتحول مبادئ الثورة الفرنسية في العدالة والحرية والمساواة إلى طبقة رأسمالية تحكم فرنسا وتستعمر الشعوب. أمام هذا التحريف الطبيعي يأتي اللّه بالتدافع بين القاعدتين الإسرائيلية والعربية في دائرة الأمة الوسط بعد اختراقها إسرائيلياً.

فالإسرائيليون قد حملوا التوراة كالحمار يحمل أسفاراً، وهناك (مثلهم) أو ما (يماثلهم) أيضاً في سورة الجمعة: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿1﴾ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ

﴿2﴾ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿3﴾ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿4﴾ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ **الجمعة/1-5**.

هنا يستخدم الله سبحانه التدافع (أداة صراعية) بين القاعدتين، معلقاً نصره أو انتصاره للجانبين (بمدى ما يعود أي منهما لحقائق التنزيل).

الغاية المنهجية من التدافع:

بتشكيل القاعدتين أسلم (القياد الديني) في العالم للإسرائيليين ثم العرب، وذلك لتحقيق وتجسيد منهج (الحق) الذي خلق الله به (الخلق)، ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴿16﴾ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿17﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ **الأنبياء/16-18**، وكذلك: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴿38﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ **الدخان/38-39**. فالتدافع هو من أجل (قذف الحق على الباطل)، فالله لم يخلق الخلق عبثاً (كالملهاة اليونانية)، وغنما (بهدف وغائية) ولهذا تم تأسيس القاعدتين.

ثم ألا يحق لله سبحانه وهو خالق الإنسان والكون كله أن يكون له على الأقل قاعدة برية وجغرافية تجسد تعاليمه؟! في حين أن أصغر حزب في هذا العالم يسعى لتكوين قاعدة بشرية وجغرافية!.

غير أن انصراف القاعدتين عن المنهج بعد أن (تدخل الله ونصرهما) أفضى لإيجاد التدافع بينهما.

ويستمر التدافع حتى يؤدي لإظهار الهدى ودين الحق، منهجاً ومعرفة، على الدين كله: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿32﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ التوبة/**32-33**.

وكذلك: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ الفتح/**28**.

وكذلك: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿8﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ الصف/**8-9**. فالتدافع ليس (صراعاً عبثياً) ليقال إنه يعني تدافع الإسرائيليين مع (الآشوريين) الذين قضوا على مملكة (إسرائيل) الشمالية عام (721 ق.م) ثم مع (نبوخذ نصر البابلي) الذي قضى على مملكة يهوذا الجنوبية عام (586 ق.م) وسقوط القدس وكان السبي والأسر، ثم الرومان فهؤلاء يغيبون (المنهج) في فهم الآيات، فتدافع الإسرائيليين مع ذلك أدى لسبيهم واحتلالهم وإخضاعهم لقوى (وثنية) وليس عودتهم لحقائق التنزيل، فما كان هو (عقوبة) كعقوبة (الأسر الفرعوني) وليس (تدافعاً).

ثم إن الله قد قيد التدافع بثنائية محددة بين القاعدتين، في (مضمر) يتكرر مثل (رددنا لكم الكرة عليهم) ولم ترتد الكرة الإسرائيلية على البابليين أو الرومان، إنما ارتدت على الأميين العرب الذين أجلوهم (لأول الحشر) من المدينة المنورة فانساحوا باتجاه الشام.

ونعرض هنا لآيات التدافع: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿1﴾ وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا ﴿2﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿3﴾ وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿4﴾ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا ﴿5﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿6﴾ إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴿7﴾ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ **الإسراء/1-8.**

وكذلك: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿1﴾ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴿2﴾ وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ﴿3﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ **الحشر/1-4.**

تحليل التدافع تاريخياً:

كان العلو الأول منذ (حاكمية الاستخلاف) لداوود وسليمان التي امتدت حوالي ثمانين عاماً من نحو سنة/1000 إلى 922 ق.م/، ثم كان الانحدار والإفساد بانقسام المملكة إلى مملكتين، شمالية هي (إسرائيل) وجنوبية هي (يهوذا) بعد وفاة سليمان، وكان العقاب الإلهي في الإفساد بالسبي البابلي والاحتلال الروماني والشتات في الأرض بما في ذلك إلى المدينة المنورة وما حولها.

وانتهت تلك المرحلة بأن (جاس) الأميين العرب (خلال الديار)، وما حدث ليهود فدك وتيماء وبني النضير وبني قريظة.

قد انتهت تلك المرحلة ولكنها حملت في نهايتها بداية حشر جديد لمرحلة (علو ثان) و (إفساد ثان) تحقق بعد أربعة عشر قرناً من (تكوين الأمة الوسط) وإعادة تشكيل المنطقة، بدأ (العلو الثاني ظاهراً) منذ 1948م ولازال مستمراً إلى اليوم.

طبيعة التدافع ومنطق السلام:

لأن هذا التدافع يستمر ضمن غاية إلهية ويتجه إلهياً، فإن (إحداثيات) التدافع نفسها وأن أخذت بالمفاهيم الاستراتيجية الجيوبوليتيكية إلا أن ارتباطها بالغاية الإلهية يجعل لهذا التدافع (حيثياته) المختلفة، فالسلام بين القاعدتين لا يتم ولا يحل بأي منطق (براجماتي)، فنص الآية الموجه إلى الإسرائيليين: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا﴾ **الإسراء/7**.

توضح أن لا سلام دون أن (يُحسن) الإسرائيليون (لأنفسهم) لا لغيرهم، ولكن وذلك بالتخلي عن (العنصرية الصهيونية) و (استئصال الآخر) و (رفض حق العودة) و (الإفساد) فإذا لم يحسن الإسرائيليون لأنفسهم فلا سلام، وهكذا يستمر (الرد الجهادي) على (الاستئصال الإسرائيلي).

إشكاليات المفاهيم في التدافع:

تماماً كما أغمض على البعض فهم آيات في سورة الإسراء فاسترجعوا السبي البابلي والحكم الروماني، كذلك أغمض على كثيرين بما فهموه من إمكانيات ومتاحات الصلح مع الإسرائيليين.

فالبراجماتيون منهم مضوا لفهم وتفسير صلح الحديبية بين الرسول ﷺ ومشركي قريس والذي وقع في أواخر ذي القعدة عام 6هـ الموافق 627/628م فهماً (ذرائعياً) مستندين إلى (توهم) براجماتية الرسول ﷺ و (واقعيته) وتناسوا أمرين:

أولاً: أن الرسول لم يكن براجماتياً في يوم من الأيام، فهو ليس بحاجة لهذه البراجماتية (فالنصرة الإلهية) معقودة لهم، وبهذه النصرة دخل معركة بدر الكبرى بتاريخ/17 رمضان/عام 2هـ الموافق 623-624م/وليس معه من المسلمين سوى/314/مسلماً في مقابل/950/من قبائل مكة الوثنية، منهم/83/من المهاجرين و/61/من الأوس و/170/من الخزرج.

ونظرة إلى هذا التقسيم الجغرافي توضح لنا أن قوى المحاربين المحترفين في جيش المسلمين لم تكن تتجاوز من فيهم من المهاجرين المتحدرين من أصلاب مكة بجفاف صحرائها وقسوة صخورها وتنشئتهم على صهوات الخيل ومصارعات البرية ورمي النبل ومراتع السيوف أما أهل المدينة فقد غلبت عليهم صفة الاستقرار الحضرية في المزارع، لم تفتل المعارك الصحراوية عضلاتهم ولم تجفف الصحراء طباعهم سوى حروب داخل يثرب كانت فيما بينهم فبالمقابل كان هناك (950) من رجال مكة الأشداء، حقاً قد ألقت إليهم مكة بفلذات أكبادها، فقد كان الفارق في الحشد البشري بنسبة (1) وثني مكي إلى (0.3) مسلماً، غير أن الفارق

كان أكبر على مستوى المراس والتدريب، وفارق جوهري آخر إذ جاءت قبائل مكة تعتلي صهوات (200) من الخيول المدربة في مقابل حصانين فقط من جيش المسلمين أي نسبة (1) إلى (0.10)، وهذه نسبة في القوى الحاملة لم يعرفها تاريخ معركة من قبل لمن يدرك قيمة الحصان في الهجوم والمبارزة، وعلى مستوى الإبل يتضح فارق آخر، فجيش المسلمين إن أسميناه جيشاً لم يكن يملك سوى/70/في مقابل/350/للقوى المقابلة أي نسبة 1 إلى 5، أما السيوف فكانت نادرة في صفوف المسلمين وقد قطعوا سيراً على الأقدام كما قطع جيش جالوت من قبل/160/ميلاً من يثرب إلى بدر.

كان الرسولﷺ يترقب التدخل لإلهي الفوري فهو يدري إمكانياته الموضوعية ويدرك جسارة القبائل التي نشأ ضمنها والتي أتت زاحفة عليه: ((اللّهُمّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي اللّهُمّ آتِ مَا وَعَدْتَنِي اللّهُمّ إِنْ تُهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةَ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ لَا تُعْبَدْ فِي الْأَرْضِ))، ومن بلاغته وضع الأمر في موضعه فلم يقل هذا الجيش من أهل الإسلام بل قال العصابة.

وكان "سعد بن معاذ" أكثر قلقاً فنجده يشرع في الإعداد قبل المعركة لإجراءات ما بعد الهزيمة التي كان يتوقعها، بنى للرسول ﷺ عريشاً يتلاءم وفرص الانسحاب في الشمال الشرقي لميدان القتال وضرب حوله نطاقاً من فتيان الأنصار لتأمين الانسحاب حو المدينة.

وكان "أبو بكر" يراقب ببصيرته الثاقبة إلحاح الرسول ﷺ في التوجه والدعاء وزحف إبل قريش وجيادها فيهيب بالرسول ﷺ: ((كفاك يا نبي الله بأبي أنت وأمي مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك))، والتهبت المعركة ويتخلى

الرسول ﷺ عن كل الترتيبات التي فرضها "سعد بن معاذ" ويقتحم الميدان يتبعه فتيان الأنصار وهو يردد: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿45﴾ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ﴾ القمر/45-46.

كان رجل سيف وقتها وكانوا يلوذون به، وكما قال "علي بن أبي طالب": ((إنا كنا إذا اشتد الخطب واحمرت الحدق اتقينا برسول الله فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه وقد رأيتني يوم بدر ونحن نلوذ برسول الله وهو أقربنا إلى العدو)).

ثانياً: أن المنطقة التي تم فيها اللقاء والتفاوض هي منطقة (حرام) لا يباح فيها القتال إلا إذا تم فيها الاعتداء على المسلمين، ﴿وَقَاتِلُواْ الْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ التوبة/36.

وكذلك: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿190﴾ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿191﴾ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿192﴾وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿193﴾ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ البقرة/190-194.

كما أن الشهر الذي وقع فيه صلح الحديبية هو أيضاً شهر محرم، فقد جاء الرسول ﷺ ومن معه للعمرة في شهر (ذي القعدة) وهو من الشهور الأربعة الحرم، وهي: (ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب) ذاك ما كان من استشهاد خاطئ.

ثم نعود لنفس (البراجماتيين) في استخدامهم لآية (الجنوح إلى السلم) وسحبها على (كامب دايفيد) و (أوسلو) و (مدريد)، فنص الآية يربط بين (الجنوح) و(الاضطرار) وليس مجرد (النوايا)، ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ **الأنفال/61**.

والجنوح في اللغة هو فعل اضطراري محتم، فحين يجنح الطائر فيعني ذلك سقوطه بعد انكسار جناحه، ثم (يقبل كالواقع اللاجئ إلى موضع) وكذلك المراد (كاسرات الجناح) أو ما جنح من السهام.

ما يتفاداه البراجماتيون:

ثم بعد ذلك نأتي لما يتفاداه البراجماتيون من (المسلمين) وفقهائهم (الرسميين)، فالله يضع شروطاً للمصالحة: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴿8﴾ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ **الممتحنة/8-9**.
ولهذا يستمر (التدافع) إلى أن (يحسن) الإسرائيليون لأنفسهم.

فهل كف الإسرائيليون عن تمنعهم تجاه حق العودة للفلسطينيين؟ وهل كفوا عن مقاتلتنا في ديننا فأعادونا إلينا على الأقل المسجد الأقصى؟.

فبمعزل عن هذه التوسطات لا يفهم العقل البشري معنى (الإرادة الإلهية) ولا اتجاهها، ولا يفهم تلك (الموازنة الإلهية العادلة) بين العرب وإسرائيل، فإذا أمد الله الإسرائيليين والمدد الخارجي بأموال وبنين وجاءوا (لفيفاً) وهجرات، وجعلهم (أكثر نفيراً) بمعنى أكثر قدرة على الحشد والتركز وأقله السيطرة على الإعلام العالمي وتوجيهه.

فإن الله قد جعل للعرب ما بين المحيط والخليج، ومد سيطرتهم إلى منافذ العالم الأوسط، من جبل طارق إلى قناة السويس، وإلى ممر الدردنيل إلى باب المندب ومضيق هرمز، أودعت هذه الأرض الطاقة المحركة للاقتصاد العالمي كله، ومد لهم من البنين والنسل حتى قاربوا الثلاثمائة مليون، وجعل لهم من الموروث الحضاري الكثير. فالذي كتب عن إيمان وليس عن كفر رسالة إلى الله يشكو عجز الأمة وعدم التدخل الإلهي لم يبصر كل هذا، ولم يفهم بعد ذلك منطق التدافع وغاياته الإلهية حتى يظهر الحق الذي خلق به الله الخلق على الباطل ويزهقه.

قد قضى الله بالتدافع مع إسرائيل، وبشرعة السيف مجدداً حيث لا تجتمع في الأمة الوسط مركزيتان، فالمطلوب أن يحسن الإسرائيليون لأنفسهم بأن يتعايشوا مع كينونة الأمة الوسط وخصائصها ومع أهل الأرض المقدسة: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا﴾ **الإسراء/7**.

غير أنهم لم يحسنوا لأنفسهم، فاتخذوا من (استئصال) الغير كما يفعلون في الأرض المقدسة مدخلاً لزرع كيانهم، كما اتخذوا من (احتلال) أراضي الغير ضمن الأمة الوسط مدخلاً لغرض إرادتهم ومركزيتهم بما فعلوه في لبنان وفي سورية، فكان الرد هو (الاستشهاد الفلسطيني) في مقابل (الاستئصال الإسرائيلي)، (والمقارعة) في مقابل (الاحتلال)، فشرعة السيف فرضت نفسها مجدداً بعد أربعة عشر قرناً وبمنطق (التدافع) كما تقرر بإرادة إلهية في مقدمة سورة (الإسراء).

ويما يتحمل الإسرائيليون المبادأة به والمسؤولية عنه ودون أن يختلط ذلك بآيات مختلف الأنساق الحضارية والتفاعل معها واستيعاب مختلف المناهج المعرفية، هكذا يتضح التمييز المنهجي والمعرفي القرآني بين آيات الحوار العالمي ومحددات شرعة السيف.

المحتويات

مدخل عام 5

البحث الأول: المعاني المختلفة التي تكتسبها فكرة الحق 7

الفرع الأول: المعنى اللساني اللغوي 11

الفرع الثاني: المعنى المفاهيمي لكلمة (الحق) في القرآن 13

الفرع الثالث: معنى كلمة الحق في الحقل الفلسفي 15

الفرع الرابع: المعنى الاصطلاحي 19

البحث الثاني: الحق أساس النظام القيمي في الإسلام 41

الفرع الأول: الحكمة 43

الفرع الثاني: مبدأ الدخول في السلم كافة 51

البحث الثالث: الحضارة العربية الإسلامية تؤسس على فكرة الحق 55

الفرع الأول: في العقيدة (الإمام الأعظم أبو حنيفة) 57

الفرع الثاني: على الصعيد الفلسفي 61

الفرع الثالث: سمات الحضارة العربية الاسلامية 67

البحث الرابع: الحق غاية الخلق 93

البحث الخامس: الصراع العربي الإسرائيلي على ضوء منهج الهدى 107

الخاتمة 127